كتاب النهايات

نصوص المحبة والزوال

أحمد المديني

كتاب النهايات

نصوص المحبة والزوال

تأليف
أحمد المديني

هنـــداوي

كتاب النهايات

أحمد المديني

الناشر مؤسسة هنداوي
المشهرة برقم ١٠٥٨٥٩٧٠ بتاريخ ٢٦ / ١ / ٢٠١٧

يورك هاوس، شييت ستريت، وندسور، SL4 1DD، المملكة المتحدة
تليفون: ٨٣٢٥٢٢ ١٧٥٣ (٠) ٤٤ +
البريد الإلكتروني: hindawi@hindawi.org
الموقع الإلكتروني: https://www.hindawi.org

إنَّ مؤسسة هنداوي غير مسئولة عن آراء المؤلف وأفكاره، وإنما يعبِّر الكتاب عن آراء مؤلفه.

تصميم الغلاف: ولاء الشاهد

الترقيم الدولي: ٨ ٣٣٤٦ ٥٢٧٣ ١ ٩٧٨

صدر هذا الكتاب عام ٢٠١٠.
صدرت هذه النسخة عن مؤسسة هنداوي عام ٢٠٢٣.

جميع حقوق النشر الخاصة بتصميم هذا الكتاب وتصميم الغلاف محفوظة لمؤسسة هنداوي.
جميع حقوق النشر الخاصة بنص العمل الأصلي محفوظة للسيد الدكتور أحمد المديني.

المحتويات

كتاب المحبة والزوال	٧
الجزء الأول: نصوص الروح	١١
هاتها من يد الرضى	١٣
هبة البهاء	١٧
سأحبك!	٢٣
شكل آخر لحضورك؛ شكل آخر لغيابي	٢٩
صهباء الشمال: الأسيلة!	٣٥
الجزء الثاني: نصوص من أنت؟	٣٩
المقام الأول من سيرة السلوان	٤١
صباح الخير أيها الفصل	٤٧
في هذا الخريف، ربما خريف سابق	٥١
انتظارات الربيع	٥٥
رحلة ذات بين الفصول	٦٣
الجزء الثالث: وشم الديار	٦٩
بغداد ... لو حكَت	٧١
آخر مغناة لبيروت	٧٥
نص في حب العرب	٧٩
إشراقات من سيرة «العثامنة»	٨٧
كل دم مسفوح، ونحن بخير!	٩٣

الجزء الرابع: مناقب الأحبة ٩٧
منقبة الشيخ: وشي على سيرة إدمون عمران المليح ٩٩
حجاب المحجوب ١٠٥
في تذكر من فتح لنا الطريق ١٠٩
لخاطر الوقت المضيء ١١٩
حسب المنايا ... أمانيا ١٢٣

الجزء الخامس: تقول الشاهدة ١٢٧
نزار قباني ... في فاس ١٢٩
شهرزاد تبوح لجمال الدين بن الشيخ ... في باريس ١٣٣
محمد زفزاف: ناسك من الدار البيضاء ١٣٧
ما أصيلة بلا سيدي الطيب؟! ١٤١

الجزء السادس: رحيل الأمكنة ١٤٥
فراغ الأمكنة ... بعد تلفها ١٤٧
المحطة رقم ٢٠ ١٥٧
الرحلة العراقية إلى الأحضان الملالية ١٦٧
صداقة بلا حدود ١٧٥
في المكان الآخر من الحياة ١٨٣

كتاب المحبة والزوال

يندرج هذا الكتاب في خط أعمال ثلاثة سبق أن نشرناها في العناوين التالية: «كتاب الضفاف» (٢٠٠٢م)؛ «كتاب الذات ويليه كتاب الصفات» (٢٠٠٤م)، وثالثها «جمر بارد» (٢٠٠٨م) مثَّلت مجموع مقالات ونصوص (بين المنشور والجديد) كتبناها في أوقات وظروف شخصية واجتماعية وإنسانية متباينة، عشناها وتفاعلنا مع أحداث وقضايا محددة فيها، وانعكس جزء منها على مرآة النفس، نفذت عميقًا بداخلها، تشربتها وعادت ترسلها مغموسة في شجونها، في إهاب أسلوب وقالب أدبيين، مما أصبح سمتها الرئيس، وجعلها تتميز في نظر قرائها المحترفين والهواة على السواء، بكونها كتابة أدبية منظمة ومتفتحة.

إنه إلى جانب ما نكتب من قصص وروايات ودراسات نقدية، وجدنا ظروف ومقتضيات الحياة تُلقي بنا في خضم العمل السياسي تارة، والمراس الصحفي تارة أخرى، والتنقل بين البلدان، وسُكنى الأحضان طورًا، مما كان له أقوى الأثر على النفس، واستدعى حديث الوجدان ... هذا كله، أكثره وأقله، وغيره مما يطول شرحه، حملناه وتحمَّلناه نشجناه، وعدنا نسجناه وأنشدناه، وهتفنا به حتى صرخنا أحيانًا وما بحَّ الصوت، ولا فتَّ العضد. نقول إنه إلى جانب ما كتبنا في الأنواع الأدبية المنضدة، والبحثية المنظمة، انغمسنا في شئون تطلبت التعبير الراهن، والموقف العاجل من الحدث الساخن، وإرسال الكاتب للقول المرغوب في الوقت المطلوب؛ فالكاتب العربي لم تبلغ بلدانه وشعوبها تلك الدرجة من الحرية والتقدُّم، وعمومًا المتطلبات الأساس لحقوق الإنسان كما أدركتها أمم وشعوب ومدارات حضارية هي التي نُدير نحوها وجوهنا صباح مساء مقلدين ومستلهمين وتابعين؛ لنقبس منها أقل شعاع ليهدينا فيما نحن فيه من ظلمات، وأي ظلام (!) ليُحس بأنه مُعفًى من الاهتمام باليومي، مكابدة الهم الوطني، والانصراف وحسب إلى تأسيس

عالمه الأدبي وترسيخ عمده، بما يُرضي الأدب ونوازع الذات. هذا الإحساس، ولو الوهمي، برسالة الكاتب في بلداننا المتردِّية يواصل حضوره في اهتمامه بكيفية ملحَّة، خاصة أنه يجد دائمًا ما يستدعيه ويبرره حتى ولو أن الحبل بات في الفترة الأخيرة ملقًى على الغارب، وانفرط شمل الكتَّاب العرب المتضامنين حول قضايا مجتمعاتهم ومعوقات أمتهم، إما لفائدة تأجير أقلامهم هنا وهناك لما يُدرُّ الفائدة، ويُجنِّب الملامة في آن، أو لأنهم يستسلمون تباعًا لمحبطات اليأس والتواري نتيجة تكالب قوى القهر السياسي والربح المركنتلي الكاسح، وشبه انهيار القيم الرمزية الرسولية.

لنعتبر كتابنا هذا، إذَن، في جزء منه محاولة أخرى من هذا القلم المتواضع كيلا تسقط الراية، ومن أجل الانتصار لثقافة المقاومة، باعتبار الأدب والثقافة عمومًا مقاومة عظيمة للفساد والظلم والاستبداد، والصوت الذي لا غنى عنه لقول الإنسان من الأرض إلى الأرض قبل أن يتأمل القمر ويبوح للنجوم. وهو في جزء آخر «حديث الروح للأرواح يَسري»، كتابة يقول مُنشئها بها وفيها ذاته، منفعلة بذوات، ومتشبعة بأشواق ورغاب، كما هي تخوض في بحر لجَب من أسماء وأماكن وأوقات، تتعين مرة حدَّ التشخيص الكامل، وتتجرد معنًى ومبنًى في محفل الصور والاستعارات، تَرى قولها يقيم في التراوح بين المعطَى والمخفِّي، المهموس والمحسوس، وهي ترفل في دثار الشِّعر، نرسله من غير أن نجنِّسه، وذلك من كثرة ما رأينا ونرى هذا التعبير السامي يُبتذل في أيامنا التعيسة هذه. لقد أحببنا في غير مكان أن نترك الكتابة تأخذ المسار الذي يناسبها، ويوافق في الشكل مرامها، بناءً على تعريف العرب للبلاغة بوصفها مطابقة الكلام لمقتضى الحال، وهكذا سيجد القارئ أن النصوص المعروضة هنا تميل جلها إلى العبارة الشِّعرية، إما جلية تمامًا، أو تستعير نكهتها وتتلون بقَوزحها، وهذا ما يواتي الجمال الذي نبحث عنه، أما الكمال فذاك ما لا يبلغه الإنسان، ومن حسن الحظ أن من ديدن الأدباء التنافس لعلوِّ الكعب في هذا الباب؛ فيُغنون اللغة وسجل الأساليب وديوان البيان، وإلا فلا قيمة لأدب لا يسمو به صاحبه إلى ذُرى القول الجميل، ترى المعنى والشعور يشمخان بألطف عبارة وأبهى مبنًى، وفيما تكون الكتابة أداة تبليغ، وواسطة رسالة وقصد، تُضحي قابلة لتؤخذ في ذاتها، وتتجلى للعيان في أحسن قوام، تصقل العين واللسان، وتُرقِّي الذوق، بعد أن شفَت حرقات النفس وجوى الوجدان. وإنا لينبغي أن نحتفل بالأدب في كل وقت، ونستمر نلوذ به خاصة وقت تردِّي الأذواق، وابتذال الأحاسيس وسوقية الأقلام. لا فرق عندنا بين نصٍّ يُنافح عن قضية اجتماعية، كأن يشجب ظلمًا أو يناهض مفسدة، أو يدعو إلى إصلاح الأمور في هذا الشأن وذاك، وبين

مقال قد يُوحي لمن ليس وثيق الصلة بالقول الفني أنه مُزجًى للعواطف أو لمشاعر مترفة، ونزوات عارضة، لعَمري لكَم تعدل الأخيرة سابقتها، بل تفُوقها قدرة علي نقل الدفين، والبوح بما في النفس البشرية من لوعة وحنين، تتضمن الإنساني كلًّا، تفي بحق الجزئي العارض، والجوهر الفريد لها مكمن وموقعه مكين.

وبعد، لقد قمنا بتوزيع كتابنا إلى مجموعة محاور، كل واحد منها يستقطب تيمة، أو بؤرة شعورية، أو رؤية عن الحياة، أو مرجعية تذكارية هي جماع المنظورات ومنطلقها الأول.

في هذه المحاور تشغل الذات موقع الصدارة، المرصد والموجه، أكاد أقول البدء والختام، فيما تلتحم في نسيج نصوصها عناصر وتخوم القرب والبعد الطافحة في الوجود، المؤسسة لماديته الصرف، فأيُّ ذات، خاصة المنشغلة بتفاعلها المؤثث الخارجي، بشرًا وفضاءً وهمومًا، الطامح صاحبها لصوغها بكيمياء فنية، لا يمكن أن تنفصل عن محيطها أو ترقى إلى نضج يصونها من أنانية محدِقة ونرجسية خانقة، رغم أنها طبع الإنسان، كيف بالفنان، إن هي لم تنغمس في الحَمية الكلية للمعضلات الإنسانية، وتتمثلها قلبًا وقالبًا. من هنا النبرة البوحية والعبارة الشعرية، وهي أيضًا طريقة تفتح أمام الكاتب سبلًا لم يطرقها بعد، ويجرؤ على اقتحام قواعد الترتيب الأجناسي، ومعناه أننا نسعى إلى جانب كل ما سبق أن سجلناه وألمعنا إليه، إلى مواصلة مشروع في تجديد أسلوب، وتحوير وتنويع طرائق وصف وسرد، وعمومًا جعل النص مسرحًا للاحتفال بالكتابة والابتهاج بوشيها وارتشاف رضابها، بعد الاستدلال بمعانيها والتشبع بإرهافاتها، ذلك أن خط الأدبية كان وما يزال هاجسًا لا نفترق عنه إلا لمزيد اعتناق لمذهبه، وشديد توكيد لأدواته ونطبع بخصائصه ما ينبغي أن يسم كتابة بعينها، ويسمح لكاتب أن يتسمَّى، أو إنه يتفرق في شتات الكلام وعمومه إذ لا أدب إلا بما هو خاص.

ولعل ما يجعل هذا الكتاب خاصًّا أكثر، سواء في مسار مؤلفه، أو مدار اهتمامه، وكذا أفق تلقيه، أنه منغمس في تجربة حياتية ووجودية كلية، انغماس من عاش وجرَّب وامتلأ وأثخن بالجراح، حتى لتغدو النصوص أقرب إلى النزف، للذات والذوات الثاوية فيها المحيطة بها والأماكن والأزمنة، تقرع جرس الزوال منذرة بالنهايات، إنما بمأساوية جمالية وحس دهشة ووقار، وهذا في ظني جوهر كتابة تنبذ التفاؤل الساذج وتبقى مفتوحة على قلق السؤال.

الجزء الأول

نصوص الروح

هاتها من يد الرضى

ينبغي أن أعترف في النهاية أني وحيد، والباقي سيبقى مكابرة، أو استدعاءً آخر لتناسي وحدتي. لا أكتشف هذا الآن، في اللحظة التي أظن ما أقوله، أكتبه، كأنه حقيقة تنقشع أمامي من ضباب وهم قديم. بتاتًا، فلا أجمل من وهم نطارده في امتداده، كي لا نقبض سوى على وهمه، يغشى صمته الداهية، لا تقول اسمها، أو فابحث عنيه!

وحدتي ليست فريدة مطلقًا. لم تعُد كذلك مذ صرتُ فيها، أي فضحتني، ونحن نتناظر بعيون ماكرة، كلانا يراود الثاني بلغة عاتبة: هكذا إذَن، بعد كل ما عشناه طيًّا لكتمان لا يباح تأتي لتقول إنك تسكن وحدتك الفائتة، لم يمضِ وقت، لم يبقَ، ستأتي لأوجَد فيك، أستبقيك أنا الأخرى لوصف انتظاري، ولن تذهب إلا إليه؛ هل ملكت شيئًا حقًّا، عداي أنا، هاها، وحدتك!

فيما قبل، الكلمات بيننا تكفي بعضها، تكلم صمتها، يتقدم الجرحُ إلى مديته، هادئًا ينام في حضن مقتله، إنه المعنى المجتمع لفرد متوحد مثلي لا يفهم، يكاد لا يستسيغ أن وحدته هي معناه الوحيد، أو عليه أن يرحل إلى بلاد الجمع ليضيع في أبدٍ لا يطاق. كانت الكلمات تكفي، وهذا ببساطة قبل أن تعرف أن مفردك مضى هاربًا عنك في جمع لغيرك ... قل لي من أنت!

ظل هاربًا، كابرتَ طويلًا لتنسى، كما سميت نفسك من عهد عاد فتًى لا يشيخ، قدر ما لا تنطفي نجوم السما، ويكفُّ الشروق عن المغيب الشفيف، قدر ما لا ينقضي بيننا بريد

الرفيف؛ هل تعرف أن الوحدة لا تأتي إلا بيقين أنك الوحيد لها، المفرد، المتفرد كلما ازداد تكاثر الكلمات، ستهرب، إنك تهرب من حجة الشك في ... أنك لا تعرف ... من أنت!

ما هذا الاكتظاظ في المعنى المباح، ولماذا لا يريد مطلق الخلق أن يفهم أن تفاحة «نيوتن» وحق الله العظيم، واحدة، سقطَت مرة واحدة، رغم أن «محمد بشكار» وهو شاعر مجنَّح، عنيد، مصمم على أن الكلام يمكن أن يُنجب بعضه في تلقيح صدفة، تجعل الكواكب تتنافس في شعاع قصيدة، ويحك، هاتها من يد الرضى، تفاحة نيوتن، لن تعود، وحدتي ... تبعث الجنون!

سأتلذذ بعذاب «بشكار» الذي لن يتلقى «الوحي» أبدًا، لا لأنه وُلد بعد فوات الأوان، ولكن — هذا يقيني — لأن دجالين كثرًا حولوا الشعر إلى فقاعات، سمَّاها الجاهلون بالشعر، دعك من الحب، الوطن المستباح، ينسجون لوغاريتمات لغوية، إذ يعترضون طريقه للسطو على كلمات وحدتنا الأولى، حين نذهب، كلٌّ على حدة، لنصطادها في مياه الظمأ الجوفية؛ كيف يشكو ...؟

أتركه هناك لأستأنف طريقه الذي يؤدي A son Cahier de verdure «لا شيء غير ذلك يمكن أن يضيء عالمنا إلا الزيت الأخضر» لـ «فليب جاكوتيت» يا عمنا الجميل، من حسن الحظ أنك تذكرت اللون الذي يشفُّ في داخلي مهما اشتدت العتمة، رغم أن أديبًا رباطيًّا لطيفًا يسجنني كلما غِبت عن ناظره في أصفر الخريف، عبد الفتاح الحجمري ينسى أني أغادر دومًا ... ليخضرَّ غدًا غصن الربيع.

ثم ينسى، لماذا تنسون جميعًا أن كل وحدة تعاش في عرائها السحيق تحت صفير الريح، هزيم الرعد، صقيع البرد، تقتات من نثيث البرَد، تنضو عنها حكمة الجبناء، تفلسف جهلاء يرشقون القمر بشعر منخور — صهٍ، أنت وهو!، صهٍ، كفى وقاحة، صفاقة! — لا شيء يهمز الكلمات مثل سقوط المعنى، غب موت الفراشة ... أضاعها صبية، ويح جني، ينقرون خطأً في الطبل، فأصحح الإيقاع ... دائمًا بالوحدة.

«أفكر، أحيانًا، أنني إن كنت أواصل الكتابة؛ فالسبب على الأرجح من أجل تجميع الشذرات المضيئة والواعدة إلى حد، لفرحة (وحدة) نتصور حينًا أنها تفجرت يومًا، مذ زمن سحيق،

كنجمة في الداخل، ونثرت غبارها فينا ...» قال Jaccottet وتركني إلى بضع سنين أخرى، أدير مروحة العمر مستقتلًا أن تأتي الرياح بما تشتهي ... الفتن ... إنها تسكنك، هاتها من رضاب الليل أو ها ... تها!

هبة البهاء

إلى محمد بنطلحة: ... وأنت وحدك
اعلم أنك لست وحدك!

انتفض الربيع هذا الصباح، وأنا منشرح في الحمَّام البلدي.
استيقظت فجرًا، لا أعرف له،
ضجرًا من نومي ضجرًا،
أم لعلي أكابِد وصلًا وهجرًا.

أردتُ أن أسحبني من سريري إذ وجدته فارغًا مني،
موحشًا إلا مني، ماذا دهاني، لم أجدني؟!
تقلَّبت يمينًا، شمالًا، تعددَت أوضاعي،
تضاعفَت أشكالي، كل ذاك ما فاد، لم يُفدني.

أخيرًا تحاملت على عدمي، على بواري، نكبات دهري،
وحتى على ما كان من بين وبينك، تعدَّاني إلى بيني،
ورغم كل شيء بقيتَ أنت تراني،
أوَتراني حقًّا، أم تراك تهتَ عني؟

وقفتُ، استوقفتُ النهار الذي في أوله، بازغًا، مشينا معًا،
ننسج الخطوات بدءًا من مرقدي، في رقاد متململ يتبعك
لذا أيقظني الفجر لما هممتَ بالرحيل مفردك،

نبهني لشتاتي، دعاني أن أنحني لغبوق صباح أيقظك!
عدت، متى غبتُ، دائمًا حضرت، لا شريك لك،
لو قلتُ سواك كنتُ أشركت، تجدني قبل المغيب أبدًا مطلعك
بُعيد الندى، مداكَ المدى، كيف تشاء، المغرب أم مشرقك
يا أناك المفدَّى؛ ها أنا ذا أعود، هذه المرة يستوقفني لا الطلل المنسي،
ولا الكثبان شربناها، بلا أسف، نمضي، لا هذا ولا ذاك،
افترضه، على مضض، يصمت الكلام، وجهك وحده المليح،
أضاء النهار من شقٍّ خلف جدار الحمَّام البلدي،
في حدب بضاحية الرباط يُسمى «تمارة»
وهي على كل حال ترجمة ركيكة للتعب،
لحالي أنا الذي في نصب؛ قد أضاء،
شمعة خفيفة الرعشة، شديدة اللفح؛ القد، الخد، أعِد،
أخاف أحنث، هي عبادة الذي قبسك!

ذهبت إلى الحمَّام البلدي، كما لم يذهب أحد قبلي إلى أي مطهر، وبنيَّة أخرى أني سأتخفف من جسدي حتى آخر قطرة، فلا يبقى عندئذٍ إلا هُلام ذكرى يرقص خيطًا من بخار ليمضي، فلعلها طريقة مُثلى للتخلص من كل ما هو فائض عن المعنى، وهذا بعد الغياب المفرط الذي روَّعني حضورك المطلق به، أنا الذي خلتُني غير معنيٍّ بتفاصيل البقاء، قط. من الطريف أن اسم المكان هذا متعدد التأويل من حروفه المحدودة. تراه هو الحِمَام، أي الموت ببساطة، أو بارتعاب لمن يشاء. هو الحَمَام بألوانه الشتى، سواء طار أو حط، والأقوى هو الحُمَم. أظنها تناسب وضعي الآن، فاللهب مشتعل في جوفي، ملتهب في بدني، ما أضع عليه يدي هو الجمر، وما لي غير النار من دثار. لا أعلم إن أصبت أم أخطأت بالقدوم إلى هنا، لكن الفراغ المتسع لغيابك لم يترك لي وقتًا للتفكير في شيء سوى أن أخلع جسمي مني، ما عاد يحتملني، صار حُمة، دخانًا إلى السماء ارتفع، أظنه ذاهب ليختلط بدم لا تعلم — ربما سُتمعِن في الإنكار — أنه دمي الذي تتقلد. يقينًا أني مخطئ ومستهوِل. يقينًا أنك لن تفعل بي أكثر مما فعل الربيع، كلفحك، في هجمته الفرحة، إثر إطلالتك، ما زالت ترقص في عيني ... مرحة.

فلقد انتفض الربيع، نبَّهني، أنا السادر في غيِّ الشتاء، أن الأرض ما انفكت تدور، وعليَّ أن أتعلم من جديد، أو لأول مرة، كيف أبصر ما حولي، وأسلُّ خيط الضوء من سُجُف

العمى. لن تحتاج لأجل ذلك أن تذهب إلى الحقول في الضواحي. لا، ولن تركب القطار كي ترحل أبعد من الأسمنت لترى المواشي وهي ترعى في العشب الوفير، قد ازدهت الأرض بالأخضر المتاح. يكفي أن تنظر إلى الجدار — هذا ما فعلتُ بالضبط — وأنت مضطجع في خرجة الحمَّام، تركت لحمك في الداخل ماءً، وطفقت بعدها تعب هواءً، تطفئ غُلة الحواس المشتعلة.

هَب أنك الآن معي — إنك سكنتَ تحت جلدي، اندسستَ في النخاع، وهذا أكثر من صورة — سترى أمامك انعكاس ضوء على الجدار. قطعة ضوء مستطيلة ممددة على الجدار. لونه كامد، ولا طعم، أو رائحة في المكان، سوى صدى خطى متعبين ومترهلين، ونفاضة بخار في شقوق الدار. للوهلة الأولى، هذا مكان غير مناسب للشعر، ومن الجائز أن نتساهل فيه مع تداعيات الشعاع. ولوهلة أخرى لن تجد أفضل من هنا لتستمتع بالحب، في شكل غانية مضطجعة، أو شعلة منفرجة. لكنك من حيث لم تتوقع سترى بلادًا أخرى لبداية هجرة وضياع.

قطعة ضوء مستطيلة على الجدار، انعكاس لإطار نافذة هي فوقي حسبما أعي، وأريد أن أنسى بإلحاح ما خلفها، أظنني أعرف كل ما خلفها، بالأحرى أدَّعي. كنت مضطجعًا على جنبي أفكر في لا شيء؛ إذ لم يبقَ لي شيء كثير لما تركت الجسد في غرفة البخار، ما ألطف وأبهر أن تحس أن رأسك تدور في الخواء؛ فهذا أفضل من معاشرة الرجال الجوف، مثلًا، أو سماع دجَل محترفي السياسة، الذين يكذبون كما يتنفَّسون. تشوقتُ إلى ضَوعك حين احتبس الهواء مرة في رئتي وانزلقتُ إلى جهة الرحيل. أعادني الشعاع ملتصقًا بعناد في الجدار، راسمًا إطار مكان مفترض. الذي يمكن أن يصبح معمورًا، إن قررت أشواقك القدوم مثلًا، للنزهة أو الإقامة، فلها ما تشاء، وقبل الجميع أنا أو بقيتي الهباء، ولها، لها حتمًا كل ما تريد من البهاء.

رغم أني أفضِّل الغَبوق؛ فليس أفضل من الصباح للمثول بين خديك، الجلوس تحت حاجبيك. هل الضوء الداخل انعكاس لك؟ بلى، وإلا من أين يشعشع كل هذا البياض، يتألق الضياء؟! علمًا بأني لم أؤد فروض الولاء من قبل لأحد، وأقبل اليوم طواعية الدخول في مستطيل الجدار. من المؤكد أنه الربيع انتفض، وإلا لما أحسستُ بما أنا فيه من حبور، وسأزداد يقينًا عندما سيُحييني عصفور عابر بودق ستحط على كتفي، وهو في علوه يطير مرحًا، ليتني أطير!

أركز على مستطيل الجدار، أتجاذب مع قطعة الضوء، أراها تدريجيًّا تنفصل عن كل ما حولها، وحدها تختصر المكان. بين أن أبقى مضطجعًا في زاويتي، وبين المُضيِّ إليها أي رهان. إما أن أسترسل في دعة الفراغ، قد تخففتُ من وزر الجسد، بتُّ أستحلي البدد. أو أعيد قراءة الدنيا في مرآتك، يا لصفحة وجه يغريني بألف كتاب، وكم من قصيد، كي أكتبه أو أنشده. يصطفيني حين أتولَّاه، مقبلًا، مدبرًا، لا أعرف كيف أحصي صفاته، أو أنعتُ ما استبدَّ بي من هواه؛ ذا دليل إضافي لو احتاج الهوى إلى مداه، أن الربيع انتفض أقوى من رغبة العصافير في التغريد، وارتواء وردة بالرحيق، وعطش يحرقني إلى نداه. كالفَراش يسعى إلى الضوء وفيه رداه. عجبًا كان الربيع يحل دائمًا، لمَ تأخرت كل هذا العمر. ما كل الذي أعماك؟! عنِّي.

وهذه صورة مشرقة، أخرى لك:
الحبيب، ثق، هي لك.
أن تراني في مداك، إن شئت أو تجدني،
متى لا أشاء، أرقى سماك.

مثلما ترقى الطيور،
حيثما ترقى تدور. ربما أنت لا تبصرها،
لكنها، عينها، تبصرك.

صورة أخرى إن انفسح الخاطر،
هي دوما لك، لك، لك لك،
أترى الطير المحلق في الأعلى،
هناك، علاك، لو أمرت فداك،
الصورة الآن، خُذها، هاك:

أو رأيت يومًا سرب نوارس،
ما حط حتى حلَّقا،
حفيف الموج، دونه،
وخفق الريح فوقه،
بينهما مزن ضاحك وهو يابس،

إلى ذُرى الوجد ارتقى،
أخذن منه المَضى قبله،
أو ثمة موت لميت بعده، ويحَه!
ثم غدون «بلُبِّك غادروا»
«وشلًّا بعينك»، على نومك حارس.
أوَضقت بي حالًا
لما اتسعتَ لي أفقًا؟!

سأكابر أن «هذا دمي في وجنتيك عرفته
لا تستطيع جحوده عيناك».

الرباط (رباط القفر)، ٢٠/٠٥/٢٠٠٧م

سأحبك!

«قال الجنيد: سمعت السَّري يقول:
لا تصلح المحبة بين اثنين حتى
يقول الواحد للآخر: يا أنا.»

الجنيد البغدادي

الفجأة، فجأة، تفاجئك، حين لا تتوق. هواء راكد. أرض هامدة. بنايات صماء، هو ذا المكان. كائنات منسية بين الأركان، أو مرمية كالحصى بلا أمان، فتات الدقائق ربما بلدان نامت في رفات الموتى، ربما أنا لا أعود، لم أكن، قد تجمعني، خلت ضممتني، خلسة المختلس، أووه، بعد فوات الأوان. ربما أنا الأَولى بعد آخر، ما لم تبصر ولم تتوقع، ولم يخطر على قلب بشر، سترى أني سأبقى الأثر، سترى أنك أعدت إلى رشد ضياع ضاع مني «يا قريب الدار ما وصلك مني بقريب». من أنت، بم الذي تفاجئني ملء هذا الحضور، ويحي من هذا الزمان؟!

ذا انطباعي الأول، عن حياة كفَّت عن أن تكون، حتى لم تبقَ. مع فارق ضئيل يشبه خيط ضوء تراه، من تحت باب. ليُخيل إليك أن هناك من لم يلفظ أنفاسه بعد إذا تحولتَ إلى سحلية. ستنفذ من تحت الباب. سترى ما خلفه. غير أنك — تلك عادتك — لن تجد سواك، سترفع صوتك: ها، هو، هل من أحدٍ هنا؟ ها، هو. لن يجيبك إلا صوتك. فتيقَّن عندئذٍ أنك صرت فعلًا وحيدًا كجربوع في الفلاة، ولن تلبث أن تقتات من بقاياك، لو شيء بقي، تقرر أن تمضي أبدًا، بلا ندم، ستكرُّ بلا رجعة. ستحاول أن تتأكد منك، من فضلة منسية ربما، في حاشية كتاب، أو بسمة طافية، نظرة عابرة، خشخشت في يدي لحظة، ثم اختفت، ما أجرحها التي أمس كانت دانية.

عندي ثلاثة في واحد: أنا، وأنتِ، ثم أنا كرَّة أخرى في حضرتك ذرَّة فانية. سرتُ وراءهم أتبعهم. أتولَّه في معترك الصحو والشدو أني منك أغتدي، وإلى منعطف النحر المضيء أُمسي. أبيض، ذاك البياض المعمَّم بالسحب الفرحة، فوقها اصطفَّ الكلام، غرَّد الطير من عينيها بغنَّته المرحة: ها ها، لبياضي رائحة فواحة، شميم عرار إن شئتَ أو شكل تفاحة نضِرة … انظر إلى السماء، كلما رأيت زرقتها موجًا في عينيك، أو حقلًا يخضرُّ، تجدني آتٍ أخفف من غلوائها، أي ما كان يُسمى في الزمن القديم بَلواك بحبها، بَلوتني يا أبيضي، بسحابة، أم بحرفك الخلب؛ أنا، أنتِ، أنتَ، ماذا تعني الضمائر، لا شيء، حين ربوعك خاوية!

على علو خافق كشهقة جبل في عمَّان، أو رقصة سالف من تطوان، وحبذا مهرة «تنطنط» كالأرانب بين البراري والوديان. كنتُ هنا في «رباط»، أنا الذي بلا قيد ولا شرط، مقيمًا بارتباطي في جغرافية الولع، وسكينة الدمع إذا اجتمع … أي قاب قوسين من حرقتك الفارهة، حين بسطتِ لي كفَّكِ في نظرتك الجامحة. أشهد أني لم أشهد أحدًا قبلك يلمُّ شتيتي ثم يذروني عصفًا من ذُرى حالاته الشتى … كحالي. كنتُ. لم أبقَ. لو أردتُ، كيف لي أن أبقى؟ أنا من يسأل، يجأر، أما أنتِ فـ «تضحكين لاهية/والمحب (أحسبه) ينتحب.»

من أتى بكَ! إلى الرباط في صفرة هذا الخريف الشاحبة؟
كانت قدمي تجمدَت أيقونة للرحيل،
ولم يبقَ لي من غدٍ سوى حسرة ضامرة،
كهباء خريف العرب.
وما فات من وقتنا حسبناه لهيبًا كالغضب.
وماذا ترين الآن معي، هل أنت معي؟
غير اجترار الكُرب.
بينا قدمي الأخرى في الطريق إليك،
صهيل بإيقاع الخبب.

حليب أمي اقترَب.
رويدًا، رويدًا، أراك الذهب،
أم أنكِ جمر اللهب!

أظنكِ بُد الأرب.
«ولي فيكَ يا هاجري صبوة
تحيَّر في وصفها كل صَب».

عاد الشتاء، أنا الشتاء، حتى ينابيع الغزارة. السماء فوقي جَوعى أم أطعمها غيمَ قلبي.

سمِّه النوى، جمر الجوى، لما انطوى في لهفة نحو ما لم يمضِ، كحرِّ شوق إليك اشتاق، أوه، كم يدفئني هذا الرد، الرعد، الزمن الوغد، كم ... سنُبقي على حواسنا حارة، حادة، كنصل الضد. سنبقى رغم شح العمر، هزء ما يقال في هي الفلاة، وغبن الدهر ننتظر المدد، تراك هذا المدد، وأنت الصمد؟!

أي شتاء هذا في سطوة الجبروت، طافح سادر في الهلكوت، أي شتاء؟!

كنت انتظرت وعدكِ قبل العصف المأكول، وحلول الليل البهيم، كنتُ يا ال على طرف اللسان، وما زلت باللحظ أهيم. رغم ارتطام الأوغاد على شموخ هواي، رغم اشتداد الهزيم. فأي شتاء أقسى من بعدكِ الملكوت، وأنا في بالي اللمَى المعسول، من أي طريق بعد اليوم إلى هذي الأرض سواء بين الرباط، باريس، بينهما كيف أموت، أي شتاء؟!

أي شتاء انعقدت فيه الأنواء. ليل يتلو ليلًا، قتل يعقب قتلًا، والنفس معي الأمارة بالأهواء. وأناك أمامي مولعة بالصمت، حتى وهي موجَعة حد اللهفة، تصبح وتمسي شاقها النظر إلى الخارج، لكنها تبقى حيث هي، من فرط شوق هائج، تتمنع على النداء. يغزر في فمها الكلام، يكاد على ضفة البوح يفيض، ثم تعود تلجمه، تقوم الليل فتحرسه، وفي النهار تغسله بضوء النهار، أناها قبلي بعدي وأمامي يقول لي وهمي إنها ستدثرني، أنا هذا المقروص كل شتاء!

قلتُ له هذه ورطتك، أنت تحب أن تذهب عادة إلى ما بعد هلاكك. كأن ما في الأرض لا يكفيك من فناء. كأن التفجع لغة أخرى تصلح اليوم كأمس صوت غناء. أم لعلك تحسب برد المسافات، اتَّشحتَ به عمرًا، سينقلب الآن، بعد كل هذا اللايُسمى ... وعدًا ورجاءً. حقًّا إنها ورطتك. استكان إلى كلماته تلك أيضًا، دُربَته وأسلس القيد على مضض إلى كأسٍ في يد الدهر، وبقلب خافق كفتًى مد أخرى، يلتقط حروف ما سيقال، عساه يُنال، ثق لا شفاء إلا هلاكك!

الشتاء ليس مصيرًا، يا هذا اصطبر، هو حرفتك، ربما مثل أخرى، فهذا بالأحرى خير لك، للعمر الفاني، للمدن الغواني، للوقت المدلهم وما لا يستعاد، إلا بمر الذكرى وشح

الأماني. قلق متضور ينهش كل ما في الطريق، خارج من أحشاء النسيان، شاخص كهشيم استعصى على الحريق، لا واقف، لا هو يمضي، لا باريس تسلوه، لا الرباط تجفوه، بينهما، على قلق، كأن الريح تحته، ثم فجأة هو ذا منذور للهيجان، كاسح وجبار يطويني كعصف ماكول!

الشتاء قماط، جُبة لبستها تحت سماء مدلهمة، أعارتنيها أعرافُ خيل جامحة، أرخت سدولها، وأبقَتني خارج الصهيل، بعد أن راودتني بدمي، أغوتني، احتميتُ بها، صرت فيها، أنا وإياها، وحدنا ماء منها، وهذا البدد الهائل اختفى لما اصطفاها، ارتفعت فوق الأرض طباقًا، لا أخاف هول الغواية، ولكن شتاء يدفع خيل وجيبها في طريقي، ووجهًا صاعقًا في الفضاء، صار حريقي، ينذرني بأن هول العمر يسير، ولهبي غدًا مشتعل من تلاهب نيرانها.

والآن نحن بِتنا في الربيع؛ أقصد نسبح في زغرودة صوتكَ، نشطح في غرَّة الوجه الحسن، حاجبك الهلال، اللمَى طفل يحبو، ما فيكَ من مُجتنى، بين كناية واستعارة وغضارة و... بديع.

الآن نحن بين أشواقك كالضراعة، قدَم إلى الأرض وقلب في السحاب، كان سيبقى أحمد المنذور إليك، بين ذهاب وإياب. يقول ما فات شيء، يعيد، سيستعيد، ويناور الأفلاك، قل أنت، في القريب كما البعيد، يتحطم القدر المنيع؛ أتريد برهانًا؟ انظر كم حولكَ من صريع؟!

«أنا مبصر وأظن أني نائم» هل أنا حقًّا مبصر؟ أم لعلي عميت من وقع النظر؟ «من كان يحلم بالإله فأحلما.» أنت المتنبي، وما أنا إلا غِر في حياض شعرك، من أكون أنا كي أقول أنا، من؟! «كبر العيان عليَّ حتى إنه/صار اليقين من العيان توهما». كبر العيان يا جدي، وأنت يا ودي، أين أحمل ما فاض من حنق الدهر، غصص العمر، لهفة ما لي عندك من نجوى بعد، إذ بتَّ مثواي، صرت بعضي. كبر العيان كما ترى، تشاسع في رداك، ويك أو أنت مبصر؟!

لعل الفصل يتداوى من جرحي، سيدفأ بحطب عظام تهن، تحرس صاحبه كلمات لا تخون، وبينهما، أنا وهو سر مكنون، يشرب من فمي أو يغرق في حممي؛ إذ يغدق عليَّ حتى الموت الزؤام، «أبنت الدهر عندي كل بنت/فكيف خرجت لي أنت من الزحام!» سيان أو لا بأس، وليكن إن شاء يشاء. معه يهون، حتى الجنون. لعل فصلًا آخر الآن خطَر، هو باللحظ أصاب، لما نظر في مقتل، «قُتلَت قُتلتَ» فها ... ما كان قبل اليوم قيد الكمون، أضحى على علَّات جسم آفل، زمن وغد، ما في الوقت من مجون، هوًى ومهوًى؛ فأين المفر؟!

«قل لمن لام في الهوى
هكذا الحب قد أمر
إن عشقنا فعذرنا
أن في وجهنا نظر!»

شكل آخر لحضورك؛ شكل آخر لغيابي

سأمتثل لكلام تفجَّر نبعًا من داخلي، وأنا أتوجس خيفة من صمت سيفيض على اللسان. قبل أن تكتب حروفه تلجلج في صدري، ورائحته عبقت ركنًا، ركنًا، في زوايا المكان، هنا في هذه المدينة حيث أحترف امتداد النسيان، وفي أماكن غيرها أنتظر من الأرض أن تسميها، هي وحدها آهلة باحتفالات الذكرى وأطلالها أيضًا، بين رحيق الشباب وقبل شاهدة الرحيل.

لا حيلة لي إلا أن أخط الوجع، في خط السير المضمَر بالوجع، وثمة في الأحشاء هول، في الحنجرة ربما بقايا صهيل. أسكت طويلًا عن ضنك الأرض، عن هدير مضطرم بين الخطوة والنظر، عن اشتعال طافح في العينين، ويد لا تمتد إلا لمن تعرف مسبقًا أن سيُدميها وتمعن في الجراح؛ هكذا وجدتني أسكت بينما على الشفتين ارتعاش كالمريض بالألزيمر، جسدي كله ليس غير رعشة واحدة، لكن متوارية خلف ثبات النظر، أنا متباعد بين من يراني، ومن أرى حين أراه لا يراني. كلانا لوهلة أولى يستحلي النظرة الأولى، قد تتبعها ثانية وثالثة ويسترسل في الولع، فكيف أضمن بعدها ألا تحبل الأرض أسمعها تبوح من وجع؟!

لا حيلة إلا رشف الألم قطرات، ووقف استدرار أي رحمة، خاصة من أوثان صنعناها من أحلام خربة، تشبه هذه الأيام، وهذه الوجوه العائمة في البراري بلا ظلال، ثم وضع ضمادات الغشاوة على عيون منقلبة إلى الوراء. تكون تمشي على قارعة طرقات أضاعت الخطوات، لم تَعُد تهتدي إلى الفرسان الذين منحوها لهيب صدورهم، واستبسلوا كي يمضوا بسطاء، ويتبخروا بسلاسة كهواء نقي، بعيدًا عن كل هذا الهواء العفن، تاركين للديدان متعة لعق أقدام وأيادٍ من طين لزج، فيما هم أشاحوا عن صورهم المعلقة في

مداخل جنان موعودة، وانصرفوا إلى الحياة، والموت سيان، من باب النمل؛ المجد لك أيها النمل يا سيد كل الأزمنة!

لا حيلة إلا أن تنزل إلى قاع النظرة، أشحتَ طويلًا عن خارجهم، أم أشاح عنك، سيان، هناك ترى المرئيات شتاتًا، وتعود تستعيدها كتلة، لقد رأيتَ الكثير واتسع الكون على مدار حدقتيكَ، والآن كأنما لا تجد غير الهباء، عمًى في الأشكال والألوان، عمًى بين فسحة الرصيف وظل الشجرة، عمًى آخر حين لا تقود الكلمات سوى إلى صدى مثقوب في حناجر صدئة، فأسأل عندئذٍ من أين آتي بالصوت، بالحنجرة، بالهواء، بأخضر شفاف يضيء حرير نعاسكِ، ونور رفيف يتقدم حفيف ثوبكِ، أو ندي همسكِ، حين تنوين الكلام فقط، أعني كلما خطر ببالكِ أن الأرض كوكب أعشى عندما لا يبصر تقاطع نظرتنا الغائبة، أو الشاردة ... عن كل حضور!

سأمتثل، أعود أستمع قليلًا إلى صدى خطوات تدق فوق رأس الشارع، تطرق باب القمر وتصافح العابرين نحو أحلام صغيرة، سأرافقهم بأناة، متكاثفًا في جسد الجمع رغم أني منفصل عن نفسي، وهي حيلة ليس إلا لأقترب من فضاء يحتويك، شمس تسمرُّ بشرتها من لفحاتك، وأنا ربما غدًا أنام كنهر فوق ساعدك، كلما رقرق الماء كبرت أحلام أولئك العابرين غدًا إلى موعد تركت فيه نظرة جامحة، ومضيت كأن لم يحدث شيء، بينما الدنيا إثرك، ما بها جائحة؟

ظننت أن باريس لي قامة،
ظننت قامتي هي باريس،
وما تبقَّى بعدها من الأرض
مني، لي بقية،
ظننت.

أوشكت أن أغيب عنها،
عن كل ما سواها،
أو عداها،
لا أرى فيه إلا المتاه.
أوشكت أن أخرس سمعي،
أجفف نبعي وأشرب دمعي.

خلتني استوفيت عمري،
وكل شيء تعدى مداه.

لم أكن في حاجة يومًا لاستعارة الصور، أو جلب كلماتي من جنان مفقودة، ولا عولت على حلم سيهدهد أيامًا قلقة، أو يركِّب لي أجنحة للطيش. يكفي أن أغرس أصابعي في الطين، وأشم العبق المتدلِّه من زهرة بيضاء اسمها الياسمين، وتغمز لي شجرة الميموزا تعلن استهلال الربيع، يليها سرب الفراش يتهادى مرحًا كالمرح، فأراها الكلمات قد صاغت ما بين الأرض والسماء نقشًا وتطريزًا، صليلًا وصهيلًا، شهدًا أتذوقها، وصهدًا ورعدًا أتقلب بين المعاني والحروف، والرعشة المدرار ميزان حرارتي الوحيد عن سؤال موغل في الحريق، ويقين أبدًا لا يبين.

مذ وقعت في شرك الوهم — لقد طال العهد بي، ولا يعنيني أن يقال شبَّ أو لم يشبَّ عن الطوق بعد — وأنا أجلب كلماتي من أبجدية الجسد المترعرع بين الرمضاء والنار، المنضد بين المطرقة والسندان. صوري تتوالد من إصراري على نبذ عشرة السكينة العمياء، وتوليد مزيد فتن في وجه سادة بُلهاء وبشر سمج، سقيم الروح يتناسل في التكرار. صوري فائقة الذهول لا أحتاج لرسمها، يكفي خط غائر في جدار حائل اللون لإعلان سلالة القدم، ويد تلوح كالشراع لإشهار رجفة الرحيل، وعويل واحد ذات ليلة مقمرة كافٍ لينذر كيف الكارثة آتية، ما أدراك ما هي ... أما الشوق، أما اللهفة، أما الحب، فلا تتسع لها أي لغة؛ لذا تبقى تائهة أرواحًا شاردة ... مذ وقعت وأنا أنبذ كل عيشة راضية.

أوشكت أصالح بين الأضداد،
وأسلِّم عز ما مضى لغدي،
فجأة فاض من الصدر كلام الحُمم،
صار غيابي حضورًا من عدم،
وها أنا أمامك على وشك البدد!

أنا من يحدِّث الغائب عني، الحاضر فيك كلما غاب، ازدادت كثافة الحضور واتسعت أرجاء وجهه، صار بلا حدود فلا أعرف أين أولِّي وجهي، تصير معي الطرقات حدقات تفتش في ذرة الرمل والهواء، تغربلهما لعلها تحصر ضياعي أم امتدادي في جسد صار هو البلاد، وصوتي إن خلا منها ليس غير صيحة في وادٍ، وتقول من حرثت بعيونها الشاوية، اجتازت البوغاز مجدفة بأهداب كيف أجزم أهي من أخوالي «أولاد حريز» أم خلاني في

«بني ملال» أم تكون سمرة سهول الغرب القمحية، ولهذا تعتريني الرجفة كلما همَّت بالحضور، مجدفة بأنفاسها اللافحة رغم أن النظرة ثابتة، والتحية تحافظ على الميزان، بحساب أنها ستفعل بك الفعائل عن بعد، فكيف إذا علمتَ أنها ستستمتع بالمثول فيك، كيف تجزم إذَن بمن هي، كيف؟! وماذا سيتبقَّى لك بعد مثولها فيك، وامتثالك في الغياب، كيف لدى الحضور، سيبقى منك؟!

الدليل أن المجاز الذي يستعير منه الشعراء كل الصور، به يصعدون إلى ذرى المستحيل، تراه هناك جامدًا شُلت قدماه، تعوَّد أن يصعد إلى السماء بمجرد حيلة للبديع، وها هي نفثة من صدرك تشعل الحرائق في كل طريق فلا يبقى من ملاذ في الأرض غير الصعود إلى سماء صار اسمها امتثالها للبهاء، والمجاز يسائل أحواله مثل العاشقين انتابتهم جذبة «الأحوال» ظل سبيله، مثلهم وأكثر، وأبقى جامدًا خارج كل فعل، ما بي يسأل ما بي، ولمَ كل هذا المحال؟

صعقتُ لدويٍّ يدوِّي، وقصف كالردى، وهزيم تلو هزيم: من يسأل ماذا؟ ولماذا؟ وقبل هذا عمن يسأل؟ وأنا حوله، قبله، بعده، بينه، ضمنه، منه، نومه، صحوه، قوله، صمته، سطحه، غوره، قربه، بعده، مبتداه، لا مُنتهاي، برده، صهده، أنا هو وهو أنا، جوعه، شبعه، ظمؤه، ريُّه، بعضه منه، لا يُدرك كله، لو قلت أنا فيه أضعته، وإن أضعته غبت عن أي طريق يأخذني إلى أي محجة غير محجته، ماذا تبقى أي بلاد حين ستهرب الرعشة من خطوته، أو تميل القامة نحو ظل لا يُفضي إلى محراب يتأله فيه البشر بالآهات قد أتخمتهم الصلوات، استجاروا بباب«ها» فرأَوا مزنًا يأوي تحت الأهداب وعيونًا تُمطر شغفًا بالمحبوب، كلمني من بعدُ فتضرعتُ إلى رب الأرباب، لكَم طلبت القرب ولَّما أسمع بعدُ أي جواب.

كلمني، هو الآن ملء الحضور، بصورة مرسومة أمس بمرود الليل، وغدًا أسمعه يصعد حثيثًا درجات دمي. وجدتنا نلتقي في منعطف غياب كل واحد ينجذب فيه إلى سر، ويختفي وراء غواية الكلمات، ونفترق حين يعزم المعنى على الجهر بمعناه؛ فيقول أنا قادم للُقياك، لتهتز الجبال، ولتفضِ الأنهار، وها سهول المغرب كلها صدري اركض فيها فيَّ على هواك، وحين هممت أن أفعل كبحَتني خطوط خَطتها يدها برعشة وبحسرة آسرة؛ قالت (من تكون؟!): «شتان بين حضور يُغذيه الخيال، وغيره من أشكال الحضور.»

منذ اليوم أعلن أني أنا الذي عشش فيه الخيال حتى النخاع بتٌّ لا أعرفه مثلما عرفته؛ فالآن تجلى لي، ومن الآن كيف أضرب في الأرض، وقد علمتك، رأيته، أظن أني رأيتك، فهيت لي. وأنت من الآن ستتعدد في «غير»، ستأخذ كل الأشكال، سأجدك في الأصل والفرع، في

المعنى والمبنى. «غير» هذه وطن بوسع كل الأوطان، افتح بابه وستلقاني فيه أقرأ سورة حضورك، تاركًا لك أن تتلو بعدي، ومعي إن شئت ما تشاء، أن تكون وإنك لكائن في الغياب.

باريس في ١٦/ ٠٤/ ٢٠٠٩م

صهباء الشمال: الأسيلة!

إلى «أصيلة» أو زايلة.

لها اعتلال في أوائلها، والأواخر منها لا تدرك،
لتُرى ترحل أبدًا في ذؤابات السحاب.
هل عرفتَ موجًا يفترُّ باكرًا في نواصي الصباح،
يبادلك الحديث ببلاغة النثيث، أم عرفتها؟
أي أرض أخرى سواها تستقبلك في كف بحناء ماء،
وبالأخرى وشيها الأزرق في اختلاج السماء.
أي أرض غيرها، لا تقل أبدًا شبهها،
تهبُّ لاستقبالك لثمة من ضياء،
وباكورة مهداة لصبوات المساء!
أي طيف عداها قل أن يناغيها هواها،
أو يضاهيها سواها، كلما أوغلت القرب منها،
ألفيت فتنتها يحرسها أبناؤها الشعراء.
قلتُ أبشر، فقد دنوت من شميم الألق،
حين على نغمة من ولع تفتَّح مثل الشفق،
ذاك بعضك، أم وجهها المستتر،
أم هاج مني لها شوقي المستعر
كخصلة موج على نحرها
... وحتى الحفيف الذي في الشجر،

وما ثملت به العين منها، وغنَّى الوتر،
أن سلطانها عليك وفيك، ويحك، أبدًا لا يندثر.

معاذ الله أن نعصي الخالق، فكيف إذا نحتت منكِ صفات الخلق البديع.
والطريق إليها أسير، يسبقني شوق متضور إلى شهد نظرتها، كالربيع.
فيطويني المسير، أسرع في الضوء إليها في الأثير، أفنى حتى النجيع.
وفي غرَّة الصبح حين ألقاها، وقد تهت عمرًا، أعانق حبًّا لها لن يضيع.
وكل مساء إذا هجم الحزن ليفتك بالقلب أودعَته هامسة سرها لا يذيع.
ومن عام لعام آتي إليك وأمضي، وأعرف أني بغير شغافك غدًا سأضيع.

وما نسيت النوارس،
ففي صدري عش لها تسكنه،
وساحرة تطرز الليل بأهدابها،
وأخرى، تلك أدرى بأدوائها،
على فتحة الجرح يد منها تلامس،
وثانية تشعل الجمر مني وتسكبه،
لم يبالِ ذو القروح إلا بصهبائها،
وفم لها قدح، آه، بها تشربه.

لا تسألوني، غيرها، بعدها
ما اسمها
صهباء الشمال ... أصيلة
أوَليست ... أسيلة
جذبتنا، إليها
من أقاصى الأرض، دانيها
أي مفتون، كل فاتنة
صيرتها ذليلة

وحده، رجل
علم فوق الجبال

يصلي لله أن يحرسها
وهي في عينيها تحفظه
بكرة، وعشية
فما أجملها، حبيبتي
... أبدًا، بهية.

باريس في ٠٣/ ٠٧/ ٢٠٠٥م

الجزء الثاني

نصوص من أنت؟

المقام الأول من سيرة السلوان

«وقال لي البلاء بلاء من رأني لا يستطيع مداومتي
ولا يستطيع مفارقته وأنا بين ذلك أطويه وأنشره
وفي الطي موته وفي النشر حياته.»

(النفري، مواقف)

١

لم أكن أعول عليها، على رؤيتها ولا تذكرها. سواء جاءت مرتعشة أو متجسدة أو تتخلق من ضباب الغيب. حدود لقائنا هو افتراقنا البعيد، من يومها شطَّت في الغياب، وجلست أنا أرعى خفائي الناظر إليها تسرع الخطو بإبطاء الالتفات إلى قوة ما سيصبح الذكرى. أتصيد التقاطها لا أعول عليها لأقفل راجعًا أبدًا إلى ذهابي الأول.

٢

تركت لي وحدي حساب عهد ارتعاشها، ودهر ابتلائي بها، ولم أكفَّ عن الرحيل بين الأزمنة والتقاط أنفاس الأمكنة لأنشق شميم نخوتها؛ تلك النظرة وهي ترشف نخب المغيب على إيقاع قلبي عند صدرها، أم راحة يدي تمسد السحاب يكلل شعرها، إن أمسكت بها هنيهة شردت عنها عمرًا أقبِّل راحتها وهي ماضية في هنيهاها حتى أفلتت من يدي في الزحام.

٣

لم يكن قريبًا ولا بعيدًا ما حدث، أو لم يحدث قط، سوى حين استطالت قامتها قدامي، والسماء، على غير عادتها، اهتبلت قربها، نزلت إلى الأرض تمشي إلى الجوار، كتفًا إلى كتف توقع نبضها، لعله خطوها، والتمَّ حولهما، فينا خلق كثير، ليرى ما لم يُرَ قط، كيف بينهما التحمنا وفاض غمر، شعشع ضوء، فطِرنا عليهما.

٤

نزلت من شامها، ذاك، لثغتها، أم غنَّة صوتها ضوَّعت طيبها لتضيعني، ربما، فحدستُ الشام. انفرجت أساريرها، وانتشى الورد بمرآها، فعرفت أن ليس لي غير هذي البلاد ما يفترش كل هذا البهاء، والطريق حيث تمضي حفيف هواها. قليلًا أطلت ممعنة في الخفاء، مُطرقة في حسير النظرات، هي من عولت أن تغزو الأرض بعينين فقط، فيما الأرض عيناها.

٥

أهو زعم مني، أم منها؟ لست أدري بأي مقياس أتذكر. ألا تحسب أن بيروت هي الزهو ومضمار الحنين، مأوى التذكر، سواءٌ لوقع سنابك خيل مرت أم لرماد الشوق في رسائل الغرباء؟ رذاذ بيروت وحده حامٍ، وليلها حاجب كل المدن. يكفي أن تنشرح مرة في خاطر الزمان ليسرج الشعراء نحوها خيال كل الأزمنة؛ في مدى نظرتها وجدتنا فضمتنا. أنا والشام، يومها بذرتنا في حقول الوله.

٦

بدت الجغرافيا امتدادًا. السهول والجبال. خطوط الطول ومجاري السهول. دورة الفصول. زهور تفتحت وأراض تبور. خلق كثير حتى يشيخ ويموت. الأوان لون واحد. المباني مكدسة متكررة. الكلام راكد كالنعاس. الوقت نعاس. ولدت في بلدة اسمها برشيد، أي في العدم. الدار البيضاء تطريز عمارات على جلد البداوة. بيروت تأفف على أهبة. الشام قوام يظهر لي وجه الفارق كي يسبيني. أقول الآن فقط ستبدأ الجغرافيا.

٧

ظهر وجهك فانتفى التشابه. ولدت أرض من الأرض. أنجبت ففاح الأقاح. طلع غرس في باريس. وحدها بين كل مدن الدنيا أينعت في صدرك. تولع الحسان والولدان، ففاءوا من حر عينيها إلى فيء أهدابك. لم أميز بعد أني هنا في شراع وقفتك. حسب الفرنجة أن رئيسهم قادم لما ازيَّنت الطرقات، بينما الأشجار أكاليل في أيدينا بتويجات الضحك، أبهى منها أصابع ترقص لوقع الخطو القادم.

٨

قبلك لم توجد، بعدك لم تبقَ. طاف المنادي ينبه الطل والعشب والورق الأحمر الفاتك بتباشير الخريف. لم يجِد أحدًا، لا صدى. غدًا كل من يمشي ويهمس ويندي إليك. غدوًّا باكرًا، إلا سري. يجدلون الألوان ستصبغ خديك تحنِّي يديك. نهر السين غادر سريره متعجبًا من جنن الفرنجة فأشاحوا عنه. إنما استبدلوه بمن؟ طبعًا لم نرها، ما أدركناها، فهي الشارات والعلامات تحدس، تتراءى، والخيل مائسة كالرخيم.

٩

بلى، لها طراوة الصباح. في جامعة Censier أمسك بيدي لتعود فيخفق فوق خدها ناعمًا فوق يدها مترنحة، بين الفراغ وخصلة شعر متمردة. رفرف الطلاب على جانبي كالحمام. عبروا خفافًا نحو أحلام هاربة. لم يحفلوا بالساعين إلى الدكتوراه، بقلوب واجفة. في منتصف الطريق بينكم توقفت. فهل باد الشعراء؟ جللتها نظرتي من فوق، ثم هبطت عند قدميها، قبل أن يستأنف الهواء سربه جاءني منها النذير: «البلاء بلاء من رآني.»

١٠

وطراوة ابن الثلاثين، والعنفوان الصاهل في جسد يزحف طوفانًا يتحدى باريس؛ أوَيُنسى أنها غول يزدرد الأجيال؟! منهم عرب يرشحون بفحولة فائضة، الأشقر دائمًا هو الرهان، ربما الأرض، رغم غالبية السود والصفر، شقراء، وأمي، خالاتي، جاراتي أيضًا، كلهن قمحيات ولذا جئت لأكتشف، لا، بل لأغزو الأرض الشقراء، ها أنا في مدخل الجامعة، السماء فوقي بيضاء، والورق أمامي أبيض لأكتبه، وأنت، أنت، من أتى بك أيتها السمراء؟!

١١

في زاوية من محفل الصمت يقعد الكلام، يجلس مدثَّرًا بمفرداته، صانعًا من حروف كالهاء عينًا، والحاء حاجبًا، والنون فمًا، والأنف قامة وقلمًا. كل ما سأسعى لكتابته — عنها وعني — لا يُكتب. فما ترسمه الحروف افتراض كلام قبل أن نلتقي في منعطف المعنى، أن نستلقي — مثلًا — فوق أريكة الإحساس. هراء. ليكن! وأنا أملي المحاضرة على الطلاب، مررتُ بطاولتها فهالني أن رأيتُ قلمها تحته الورقة بيضاء وهي تكتب. خمَّنت أنها إما تريد أن تروض الكلام أو تروضني، غدًا!

١٢

كنا في أكتوبر. الخريف — مثل استنفارنا — على أشده. من حيثما مرَّت ينتفض الشجر. هي ريح خفيفة لتتجرد؛ بالجسد والمعنى. شعرها ما انفكَّ مشدودًا إلى الغوطة الشامية. وأنفاسها، ما بها؟ يا ويلي! ضوء سكوب من رذاذ المساء. سُهَّد الليل بعدها سيتلمظ مع اختلاج أول وهْم … رمتني ومَضَت. نظرة واحدة إليها تلقفتها وطوتها أبدًا. منذئذٍ لا أبغي سوى ذلك، أشدُّ ما أخشاه انقطاع أمسها، كيف بغدٍ.

١٣

رآني المغاربة عند ناصية شارع يؤدي إلى الشرق فتعجبوا: لماذا جئتَ إلى الغرب إذَن؟

أم بردَت في المهجة الوحشة لأمك؟ أردتُ أن أجيب لم يفهم ضلالي إلا من عاش بليَّتي، أو جرب ابتلائي؛ فتأخر الكلام لا يأتي إلى لساني. هي من أخذته في سطوتها الفاتكة. دهِشين تسمرت نظرات الطلاب إليَّ. أحملق في وجوههم ولا أقول. ما أنا بقائل. فجأة تطايرت الحروف. انسربت من بين الشفتين تطير كاليمام. أردتُ أن أركِّب اسمها، بينا هي أبدًا تطير!

١٤

في مدخل الجامعة ثانية، رأتني واقفًا شبه مهلهل. لا أتقدَّم ولا أتأخر. عبرَت وحيَّت بخفة وابتسامة كعادتها، هكذا هي جوليا، جوليا كريستيفا: Bonjour «أهمد» ثم رجعت

صائحة بعجب: !Tu es splendide aujourdhui. حاولت أن أفهم، طبعًا، فأنت لا تراك، وإلا انظر عشب رأسك، موج الأصفر السابح مع الأخضر في وجهك. لكن قل لي — سألت بمكر — لمن أعرتَ عينيك؟ تعرف أني أنتظر من عشرين حولًا أن تعيد أخرى لي نظرتي. نابت جوليا عن الجواب بالتنبيه والعتاب: ألم أحذرك من السلوان، إنه مثل السيميولوجيا، علامة وسراب!

صباح الخير أيها الفصل

«وقال لي البلاء بلاء من رآني لا يستطيع مداومتي
ولا يستطيع مفارقته وأنا بين ذلك أطويه وأنشره
وفي الطي موته وفي النشر حياته.»

(النفري، مواقف)

١

صباح الخير أيها الفصل. خلتُك للوهلة الأولى ذهبت وتركتني؛ أوَتستطيع حقًّا أن تتركني أنا خِلك الوفي الذي ما سلاكَ يومًا ولا جفاك، حتى كاد أن يقسم ألا يكون حاله إلا منك في حالك، حتى. أنت تعرف أني أقدم إليك في الوقت المحدد، الذي يناسبك، يخصك، وعداه، غيره، ليس أنت؛ لأني عرفتك دائمًا أيها الخلُّ الوفي، مثلما أحببتك.

٢

لا تتقدم عليَّ، لا أتأخر عنك. هو ضرب من الميثاق بيننا وعهد مبرم في السريرة، اختبرَته الأيام ولم ننكثه، رغم تبدُّل الدهر وصروف العمر. كلانا في النهاية يذهب إلى من يطلبه، مطلبه ومذهبه، بل معشقه فيه مهجته. إن غفلت عنك لحظة ذكَّرنيكَ غيابك، وما هو إلا سعيك وشرودي فيك — هذا المدى المتصل بانقطاعات هياجي بك في بَوحي إليك، لو علمت؟! — أما إن ارتحلت فكل الآفاق قدَّامي، عجبًا وخلفي، طريق إليك.

٣

يحدث أن نفترق، معناه أن يتباعد الجسد، كأن يقيم في البدد، لكنَّ روحينا لا تقيم إلا فيما انوجد، أي فيَّ وفيك. يحدث — أيضًا — أن يرتدي الطقس لونًا غريبًا فلا أعرفك، كلًّا فأنا لا أنكرك، كما لا أشركك. قد يحدث فقط، والافتراض كالوهم مجاز، ليبقَى مجازي فيك إليك. ثم ما يلبث الصحو أن يعود لتظهر كالكلمات البسيطة في مطلع النها، أو بريق أول شعاع يخرق سماء الرماد، تستجير به البلاد، يصافح في وجهي منك ظل وطَل، وهفو الوصول.

٤

أعود إليك. أتجرد من كل ما ليس في منك، ما يسرقني من جوارك، يباعدني عن حماك.

تعود إليَّ. أنت لم تذهب قط، بل استغرقتك شجون رحيلي، متى يحل غدي، مسافة جزري ومدي، وهذه الرجفة — جسدك — حفيفها في يدي، أم حرقتها كلها أمس كاليوم، كبدي. سنعود معًا. تسير أمامي فأمشي إليك، سبيلي مدى نظرتك وانغراس جذوعي في تربتك.

٥

لست احتمالًا، بل أنت المآل ماثلًا أمامي في ارتعاش وسواسي بك خشية ألا ألقاك، أو يفوتني ميقات انتشارك؛ ذاك المخيف يفتح جفن الصباح على ضوء لونك المتموج بانتظاري. صخب هو وضجة هي واحتقان وغبطة ومخاض وعذوبة ما أعذبها كالدهشة تعتريك، حين تراك أنت تراني، تتضاحك عندئذٍ بألوانك ما بان منها وما هو في حضن السريرة، سيتفتق غدًا عن شكل المحال: أيها المعذب المهول من فرط اجتياحك أحراش النهار، كأنك لا تعلم أن مسكنك أحشاء الليل!

٦

ولا أنت شك، شبه ببقايا احتراز قديم من فوات الفصل ... مكابرة أن أقول فواتي. من شدة اليقين بك يذهلني حضورك الحائم بين وشي بذور الغمام، أي أنك حضور وغياب،

ذهاب وإياب، تتعالى راقصًا في رفيف الحمام، وأنا المستعر تحت عجين التراب أشاهد غدوك فيَّ وصهد خطاك على جبهة الريح يجبلني من لهب، لا أستجير من أي رمضاء بغيرك، فأنت الذي قبلي من بعدي، أنت الذي من غلب.

٧

بل الزمن الشاخص المتعرش بين تويجات الضحى، أو كما أحبه منسدلًا كعرف على نحر هذا الشجر: إني أراه الآن، كما بالأمس، على مسمع الريح بيننا شاهدة، يرتدي شكل وجهي ويمضي على أثرٍ من خطاك إلى خفقة اللون الخصيب، أو أغيب، متلألئًا في نطفة فضته، متبرجًا كالشهوة الجائحة، واقفًا يصرف أفعال وقتي، ما مر منها، ما هو آت، بفعل الأمر أنقاد له، أعلم، لا يضارعه سوى زمنه.

٨

خفتك تنساني لما انزويت قليلًا من بعدي. أعني هناك في رَبع يسمى بلدي أو وطن، أو ما تبقَّى بعد الفتك والنهش من جسدي الطريدة. خفتك تطوي أرضك المبتغاة حقًّا، وتمضي بدوني إلى أسرارك النائية، وأبقى هنا حيث لا اسم لهذا المكان غير ما حزته أو نلته من طلعتك الزاهية. خفتني أنطوي خلف أستار البلى، أنت وحدك المجتلى في البعيد، كيف بالقريب، من يمسك الرعشة، من يدركك؟! «وإنك كالليل الذي هو مدركي/وإن خلت أن المنتأى عنك واسع.»

٩

مر عام. مرت أعمار. والذي يليك. يليه. نكهة النهار مطلعك. سلافة الليل مضجعك. وحدك من نهوى أو نهوي فيك. نحن ناجيناه فقلنا لو لمعتَ من حدق أو شمخت في أفق، لنراك أو ترانا نسبِّح، نلهث في مداك، وحق رب الفلق، قلنا بحَّ منا الصوت، فما أعيانا الانتظار، خلنا لحظة أن تهاديت في ألق. هي الأرض كيف تركناها، وسرنا نحو أخرى ... ثراها موضعك ...

في هذا الخريف، ربما خريف سابق

في هذا الصباح، بعد أن جاهدتُ جسدي كي يصمت فيه فحيح جسده، عدت إلى البيت، وكما يحدث لي عادة تهيبت أمام باب مكتبي قبل أن أدخله. جلست إلى الطاولة استرخيت قليلًا على الكرسي الجلدي. كنت في حاجة لاسترجاع أنفاسي ولاستجماع الأبجدية بزعم إضافة حرف جديد. حديقة البيت خلفي. يكفي أن ألتفت لأراها من زجاج النافذة وهي وراء ظهري، إخالها أحيانًا هي من يرقبني، مستنكرة كيف أسلوها وأنكبُّ على أوراق باردة كضرَّتها، فأقفز بالبصر بعدها حيث يجري نهر السين قربي في دورته الأبدية.

رتبت مكتبي بكيفية تجعلني أدير الظهر للحديقة، وللخارج مجتمعًا. أخشى من الضوء الجامح، من العتمة الملغزة، أو الأشجار السامقة على قدر أحلامي وأوهامي أن تشغلني عن نفسي، فيما أحاول الهروب قدر المستحيل من نفسي. هناك عالم كامل ينبغي أن أكتبه، لغة لتتفتق من شهيقي، وأساطير باهرة قابلة للخلق فوق جلد اليوم المتبالي، وهناك ... أخشى أن أزيد أنتِ.

ملت قليلًا، يمينًا، أظن لأسحب كتابًا من الرف، وعندئذٍ انتبهت إلى فضاء الخارج. سمعت ما يشبه الحز، أو آلة تنشر خشبًا ... الآن، وقد احتد الصوت أملتُ جسمي كاملًا إلى جهة الحديقة التي بدت سمحاء بعد أن جاء البستاني البارحة وهذب عشبها، ورتب شجيرات وردها. لكن أوراق الخريف المتساقطة من شجرة علياء تبعثرت فوق العشب يابسة، حنائية، في انتظار أن يبللها مطر المساء، وتذروها الريح مثلما تذروني أعوام الغربة من فصل إلى فصل ...

ثم ماذا؟ إني أراهم هم. قتلة الأشجار. عند ضفة النهر تمتد الأشجار بفروعها متمايلة في ارتفاعها مثل أيدي متضرعين، أو شمعدان مشتعل لطقس مهدًى إلى آلهة غامضة. غصونها خصبة الأوراق وريح خفيفة تناوشها لإسقاطها بينما الأصفر والأخضر

يلتمعان تحت شمس موردة بعكار فاسي، وهي في منحدر الغروب. لكن سلالم عالية صاعدة من ماكينات تنينية الرءوس حاصرت الأشجار، يعلوها رجال ضئيلو الأجسام يتسلحون بمناشير كهربائية يعملون بها قَطعًا للفروع وفي حسابهم أنهم يشذبونها كي تعود في أعوام قادمة أشد عودًا، وها هي الأشجار صلعاء، أصلع من مغنية يونسكو، وهم يقهقهون بين تشابكاتها بغباء، والطيور التي تأوي إليها عادة راحلة في هذا الموسم وأنا باقٍ هنا أشهد المجزرة، وكنت أكثر قدرة على البقاء لو أن فصلنا الذي تحدينا به الطبيعة وشرائع التوافق الرتيب، أنا وأنتِ، لم يكن قد نشر أجنحته لنحلق فوق السحاب مخترقين سدف الغياب، مشتعلين في حريق، من يسعفني فأقول اسم ناره، اسم إلهه وعباده.

لماذا أحكي عن الأشجار محزوزة الرأس وفي جنبَي يرتعش البرد المبكر للفصل القادم، وفصلي الجديد معي، هو نار وبرد، حمى ورفيف، الليل مسكون به، هو سكينته، والليل منه في ذهول، لماذا؟!

الحكاية ليست سرد خبر، فما أكثر الأخبار، إلا هذا السر الضميم لا يشاع إلا في صوفية بَوحه، في سريرة اغتدائه بهمسه: «وقد أغتدي والطير في وكناتها/بمنجرد قيد الأوابد هيكل» الحكاية مجاز، ومن معانيه العبور. طريق نعبرها نحو …

هكذا، أنا وهي، نوجد في المجاز، وهذه المرة بمعناه البلاغي، فلِكي أقول الشيء يأتيني قول آخر، أكني عنه، التماس الوصول إليه. انظري كيف أن اللغات واللهجات كلها بحكمها، وأصواتها، نكاتها، خرافاتها، أزجالها، وبالشعر … كيف أن هذا القول ينشئه المجاز ويعمره، وبدونه يصبح من ضرب الكلام المسطح، لا يؤسس، لا ثقافة، ولا إبداعًا، ولا يشمخ بالإنسان حيث ينبغي له إلى ذراه، آه، في تلك الأعالي!

هكذا، أقف أمام الكلمة، الكلمات، نختلس النظر لبعضينا، يدمدم فينا الوجيب، مرة وأبدًا للوجه الرغيب. هي آتية، وأنا ذاهب، وثمة مرج بيننا راعف بالنظر مثلما يعتلي الموج البحر ويكون بحره، لو قالها اختفى الموج، ستقال، ستتبدد، نمسي لا كائنة وتكون. أقف تحت شرفة حلمها وأنا أطل منها لا يدري بصري أين يذهب سوى لسماع انهمارها حين يأتي. أتلقف كل ما ينحدر منها، وأعود أصعد بها نحو كل ما يعلو … في أعاليها، أنا الذي يعجز عن قولها؛ لأني إن فهت مت، وإن مت من سيقول بعدي: كيف الحياة بدونها؟!

وتقول تتمة الحكاية أنهم بعد أن فتكوا بأشجار الشارع كلها يا … بقينا نتراءى منها، عاريين، نرتعش في هذا الخريف، وغدًا شتاء، أستخرج جمرة القلب لندفأ قليلًا قبل

أن يأتيني الصوت شاهرًا سوطه على جسد ليس لصاحبه أن يقول أبلغ من أبي بكر الصنوبري:

«ذبت حتى ما يستدل على أني حيٌّ إلا ببعض كلامي.»

انتظارات الربيع

حبي كله بذلته للخريف.
ما بيننا من وصل لم ينقطع أبدًا.
ما بيننا من عشق ذاع صيته.
ربيته، هدهدته، أودعته أسراري.
أسكنت فيه من أحببتهم ومن أحبوني.
تخذته أبًا وأمًّا في غربتي عن الديار.
جعلته لي ووطنًا بديلًا.
من أجله تنازلت عن سبق الأوطان.
ذاك خريفي، فصلي، ووصلي.
له بذلت كل الحب، حتى ...
كدت أفنى، ويفنيني، حتى ...

أظن طال العهد بنا هنا.
إني مكثت طويلًا ها هنا.
بكيت، غنيت، رقصت،
وهنا شيعت إخواني، وخلاني،
على عهد الهوى، باقٍ ما أراني.
بالعظم بعض الوهن، والقلب لا يخلو من شجن.
أنت يا نبضي الذي لا يضرب أحيانًا إلا بالحزن.
لكنني بالرؤية والوهم معًا هنا باقٍ

طالما سلمت أن الخريف،
هو البدء ... أخاف من المنتهى،
أما النهايات فورائي،
ويومًا غنيت بأعذب لحن:
«يا سيدي لأنت هو الوطن!»

وماذا بعد؟
ثم ماذا بعد؟!
«خُلق الإنسان ملولًا» (!)
وأنا، أقل من إنسان، أراني،
جسدي أحيانًا لا يحتويني.
وأكثر من إنسان، ما لأنه هو،
ما أضيقه، لم يعُد يسعني.
لذلك لا خلاص لي في إلا كلمات؛
فأنا أكتب كي أخرج من ضيقي،
لأخرج بحثًا عن الاتساع،
نحن المغاربة، حين نضجُّ من بعضنا
يغضب الواحد من الآخر، نصيح:
نصيح في وجهه: أعطني الاتساع!
وهناك قوم جاثمون على أجسادنا
يا قوم منذ كم أنتم جاثمون؟
أفلا ترعوون، ذات يوم تخجلون؟
وذا سبب آخر للجوئي إلى الخريف،
وهذا قبل أن يهل وجهك،
ومنذئذٍ وأنا أحيا، ما زلت أحيا،
في انتظارات الربيع.

طال العهد بي هنا حقًّا، في باريس، كما في هذي الأرض المسماة الدنيا. لست نادمًا على شيء، ولا راغبًا في تكرار ما فات، كما لا أحب الإقامة في أي مكان أو زمان آخر غير

ما كنت فيه وعرفت. هذه الأرض أدمنتها، وتبقى مشتعلة في حواسي، ولهفتي عليها لا تنتهي، عجبًا كلما اضطررت لمغادرتها أبدأ في النظر إلى الحيطان والأرصفة والأشجار، والهواء أتشممه، كأنها المرة الأخيرة، مثل محكوم بالإعدام سيجمع العالم في نظرة أخيرة قبل العدم.

والخريف أيضًا، صار عندي كل الفصول، إن عشت باقيها فلأعود إليه كي ألاقيه، أفطِّنه أن بيننا موعدًا ثابتًا ودائمًا لنمتحن وفاءنا، ونديم بقاءنا، مدى المحبة الفسيح، حضني له مفتوح.

وها أنا، بعد أن طال العهد بنا هنا، وجربنا ضروبًا من العيش، والليل، وطعوم الهيام والغمام، عرفت فيها طبع الأخضر، وسلالته الممتدة حتى أول سنبلة نمت في حقول الشاوية.

وبعد أن رأيت منطقة النورماندي فصار كل حلم لي يخرج من عيني بدثار أخضر، أقصد الأصفر، يتخللان بعضهما، عاقدَين قرانًا فريدًا تزفهما الريح والتراب الندي مثل مساء بَليل على الشرفات وعيون عجائز يخاصرن أحلام أمس وهن المتعبات، هن عماتي «الليالي اللواتي سببت سقمي»؛ فأحتاج إلى قليل من الفرح، أو ما تيسَّر منه، خبر حلو منتزع من أيام مُرة، قد نفرح يا قلبي مَرة، داومت ذاك الفصل أختزن فيه حتمية الزوال، ورغبة البقاء، بالرغم، في هذا العالم المحال، داومت إلحاحي وها أنا بتُّ أخاف اليوم من ثبات صفاتي، حتى قدمي صار جزءًا من شهيقي، زفيري، من آثار خطواتي، لا أسأل هل أغير طبعي، هل أبيع وشم لحمي، هل أنفخ في المزمار أستجدي موائد الطغاة، على غرار خلق باع روحه، داس ظله، صار ضاربًا للدفوف، متاجرًا في الأحياء وتراث الأموات.

كلما أقبل الربيع أقول يا فلان تبدَّل،
غير جلدك، حول دربك، لكن لا تتبدل.
شم الوردة كما لم تشم نبتًا من قبل،
واغسل طرفك بأحلى ما في الأرض من الطل.

كلما أقبل الربيع اهتاجت فيك الأشواق،
تتحير أين ستمضي، لمن ستروح،
فتنة تتلو أخرى، فكيف تبوح؟!
نجم يتلو نجمًا، والليل عناق.

تعود تقول أنا أنتظر ما لا أعرفه، ما لا يتمثل بعد مرأى ومسمع. ما لم يخطر يا صاح على البال. أنا ابن الطبيعة وأرفض انسيابها أمامي، أريد أن أكون في معتركها، في خضم تشكلها لا وهي اكتملت. أعترف، من شدة فتنتها أغلق عيني أحيانًا، يغضى البصر منها حقًّا فيما أسترق البصر إلى ما قبل وما بعد. أنكمش في الزمهرير مختبرًا صلابة عظمي، وأتعرى في الحر أوشك أن أذوب. سأتحرر تمامًا من جسدي لو حدث هذا، لأرجع إلى الأصل الأول منه قدمت، في غيابه أتملاه، وأوشك أدركه، وحين يقبل الربيع أحس به يعاتبني كيف أسعى إلى العدم وهو يتبرج لي في بدر التمام. أجيبه بأنه يزاحم الأمل، يطرد من الجفون الأحلام. خذ، إننا نحلم على الأغلب في فصل الشتاء. كل واحد يدخل إلى مغارة ذاكرته، ويمشي في دهاليز سريرته، يستنبت التراب، ويستشف ما في تضاعيف الغمام، يستحلب آخر ذرة من الأوهام، يتزود من غده بليلته، في الصباح ربما ينسى، ربما يسعفه الحلم، طيش الليل، ليواصل دربه، أو سبيلًا تقود إلى حتفه، وأنا بكثافة الغيم فوق رأسي، السماء الرمادية هامة، والرعد علامة على أن القيامة في الأرض، أيضًا، قائمة، أخوض في الهواء البارد والماء الجامد، أتأفف من النهار المدلهم، أرتعد لليلة الظلماء، وما أنفك أتناقض مع حالي، فهكذا خلقت؛ هواي سكنى الفرق والنقض، والإبرام عندي هو النهاية، هو الاكتمال، والموت منتهى الكمال!

ارتعشت كأنما فاجأني، وهو حولي، منذ بضعة أيام، منذ أسبوعين. كنت لمحته يحوم من بعيد، يناوش برسله الطيور، وهي تعود إلى عناوين تعرفها، ومواعيد ستجدد فيها اللقاء، وشجرة في الحديقة نتراقب من شرفتي أنا وإياها، وطير بعد طوير يقطع منها عودًا إثر عويد ليصنع العش الذي ستبعثره الريح مرة أخرى في فصل الشتاء القادم، كالذي مضى، وهكذا …

لكي يمضي الشتاء لا بد أن يرحل عن القلب. الفصول لا نشاهدها، أو تجلياتها كما تهبها الطبيعة فقط، بل نحتاج إلى أن نحس بها. هي لا توجد إذا لم تدخل من العين، ولم تنفذ تحت المسام، تسمع لها أحيانًا غليانًا في الدم، وألوانًا على البشرة، وأصواتًا جائعة أو نابحة، أو جريحة تنادي، تتناجى بكل الرغاب، قبل أن تهب عصفًا، وتخر وريقات منهكة على الأرصفة.

ثم تتفتح زهيرات بأجمل ما في الأرض من ألوان.

لكي تعرف أي فصل حقًّا، عليك أن تتخذه عشيقة أو خليلة. بأن تخلص في هذا العشق، وتتعلم مثل أي طفل يدخل الروض أبجديته، والطريقة الصحيحة للنطق باسمه.

لك بعد ذلك أن تتخذ نبرة خاصة بك في طريقة نطق اسمه، تناديه بها، تُدلله تداعبه، ستغضب منه وينقلب مزاجك لانقلابه، وألا تسلوه، أو ستسلو الزمان كله. لن يبقى العمر عندئذٍ سوى توالي الأيام تتعاقب فوق جسدك لتحرثه بالتجاعيد وتهريه بالهرم. بينما إحساسك بالفصل يقظة دائمة للعمر، مصارعة للزمن بأنك حي، ولا تستسلم للتكرار والتشابه. وفي الخريف، مثلًا، أوه، ها نحن نعود إلى الخريف رغم خرفه؛ تظل أنت العاشق يقظًا، منتبهًا في حذر دقيق متى وكيف تدب الهشاشة في الأغصان، تحيل أوراق الشجر، ترقص واهنة من أثر أخف هبة، وتتوجع صامتة لدى ارتطامها بتراب كثيرًا ما تسحقها فوقه خطوات اللامبالين من بشر لا يعشقون، وهو يدوسون على النمل وأوراق الشجر، وحبق القبور، وضوء القمر يغلقون دونه الشبابيك، ويحهم، كيف لا يبصرون؟!

في البداية أنشرح لقدوم الربيع، من غير أن يرضيني تمامًا رحيل الشتاء، وقبله أيام احتضاره. هناك دائمًا ولادة تعقب الاحتضار، عناد الحياة على الاستمرار، ودليلها بأن الموت ربما ليس نهاية كل شيء. لا أذكر كم شتاء تكومت هنا في باريس، بين مدنها، أرض المطر والغيم، وأمسك بتلابيبي الصقيع. لكن، هنا شعرت ووعيت بأن فصل الشتاء سكني؛ بمساحة وجدران ونوافذ وسقف وبرد ودفء ... هو المكان الذي يحتوي الجسد، يجعله يلتم، ويتكاثف، يطوي أعضاءه وهو يلمها في عناق، في شكل رحم. هو العودة إلى مسكن الولادة الأول، إلى سرة الأسرار. فصل الشتاء رحم الطبيعة والصيف فضيحته، همجيته، العري الكامل، وتفكك العناصر، وسيطرة الضوء الواحد، اللون الموحد، والبشر الهائم على وجهه ليروي عطشه حينًا، ومستعرضًا حينًا آخر غواية جسد، هو في نهاية المطاف، آيل إلى التفسخ.

يأتي الربيع قبل ذلك مثل هدنة مؤقتة، لم لا خدعة سكينة وجمال عابرين. يجذبك إلى الدعة، وكلما تفتح برعم استيقظت فتنة نائمة ... الربيع لا تحتويه ولا تختصره كلمات. هو صفات/صور/نبرات/روائح/ألوان على امتداد مسافات/خلجات وارتعاشات/همس ندي/بوح سري/عند المؤمنين تبتُّل وخشوع لمزيد صلوات/صور، إذَن، تتفتق بأفعال وبعدها. الربيع يحدث، وكل صورة من عديد مشاهده حدث بذاته، وهو، أيضًا، كالأطفال يكبرون أمامك دون أن تعرف كيف ولا متى كبروا. تستيقظ كل صباح فتلاحظ زيادة في الطول، نموًّا للأطراف، بحة في الصوت، وأنت لا تكاد تصدق. هم لا يعرفون، لا يعنون بعجبك، الربيع كالأطفال يختال بصباه، يتقافز بأصواته، يثبُ بألوانه، ويعتدي صدفة بحسنه، من غير أن يعبأ أو يتوقع أي حساب، فهو طفل، غر، مشاغب بالزقزقة والتغريد

والنقيق ورفيف الفراشات، لا يلتفت لمن يتغزل بجماله، كغانية تسحب سالفها، أشجار تتدله أغصانها، وهي تدري وكأنها لا تدري، أنها تجر قبيلة متغزلين خلفها، وشعراء تروبادور، يعزفون على نياط القلب لحن الهوى والسرور، يا ذوات الحور، انظرن ما فعلتن، وهن يمضين ساليات كعشب ناعم، في حبور!

بذا يضايقني الربيع، بالأحرى يربكني،
يتجلى وهو يتثنى ويتعنى،
ومع أول ريح أخاف على عوده أن ينكسر،
عوده الطري الذي كنت وانكسر،
العمر قبله انهمر،
بأي غزارة، بأي طوفان، ثم تبجل،
نضج كمثرى وطفر،
ثم هاج الجسد، قلت أنا العصف والريح الصرصر،
وفجأة انتبهت حولي،
الأحبة ها هم رحلوا،
الديار خلت الديار، لا وقع ولا أثر،
أكلُّ ذاك الربيع كان وهمًا، حلمًا عابرًا في الكرى،
أم نزوة الشباب والبطر؟!

إنك ستنتظر وتنتظر، أعلم أنك تكره هذا، إنما عليك أن تتعلم لا كم، بل كيف تنتظر. انتظارك طال، سيطول، وما ينقصك هو إتقان تعلم صبر الكيف. منه، مثلًا، أن الربيع ليس فصل مواقيت، ولا فوح ورد، اعتدال هواء، ولا الفراغ المتراقص الصاعد بين أرض وسماء. لا ولا أنثى مضرجة بالحياء، ولتكن شهوانية كالجحيم، همت بها، وعلى صدرها الغض نمت يومًا، بكيت أمس، تهت في لحظها كأنك في الفلوات، وها الربيع حل، وأنت تسمع مثل الفحيح مثل نداء بأسماء كل من أحببت، واسمها تصرخ من أنت؟ ما الربيع؟ من أنا لأظل جسدي وقلبي لا يستريح في أي صقع، بين دعد وسند، هند وأسماء؟!

قلت لك تعلم أن تتعلم كيف الصبر، ونوع السؤال، قلت، إنما هل تسمعني/أم أنت سافرت كالعهد بك يا ظلي وسميي، وضعفي، فرعي وأصلي، في سؤال المحال، هو ذا أنت على كل حال، هو ذا أنت، أليس كذلك يا أنا، أم ماذا ونحن نقرع ملحاحًا باب الله: هكذا، أكلُّ انتظاراتنا، في الفصول، وبعد الربيع ليست سوى إلى هذا الزوال؟!

ما بي هوس شخصي في النهاية، وقبل البداية، فانتظارات الربيع، هي كذلك انتظارات جيلي، من الكبر والشساعة، والآمال، حدًّا يدفع إلى اليأس، يأس مهول، فات الفجائع الشكسبيرية، ومن المفارقة أنه كلما تضخم زدنا انشدادًا إلى انتظاراتنا الحمقاء، رغم أن العمر يقصر، وذكرياتنا بما كنا ورغبنا فيه تتباعد وتفنى، لننسى، ورغم هذا نتفاني لنبقى، متعلقين ببصيص أمل. فهذا العربي الذي هو أنا، ونحن، ليس غير ذبالة أمل، والذبالة لا بد ستنطفئ، بحكم أنها تذبل، وفيما هي ترتعش تقطر بالصمغ لتضيء ما حولها؛ إنا نحن الذبالة، الصمغ، الضوء في آن، فأي معجزة هذه، أي خيال ومحال؟!

في هذه اللحظة بالذات، الساعة الثامنة مساءً، من يوم الإثنين رابع أيار (مايو) من عامنا ٢٠٠٩م، الربيع في باريس، حيث ما زلت أقيم، يتنفس بقوة، رغم أن زفيره يتعرض لاختناق متقطع بسبب غيوم ما تنفك تغير على سماء باريس قادمة من الغرب، من المحيط الأطلسي، وقد تعوَّدنا أن تحدث هذه الغارات في شهر نيسان (أبريل)، أعتبرها عناد فصل الشتاء يرمي ذخيرته الأخيرة من المطر والبرد، وهي غيرة من الفصل القادم ينتظر فيه الباريسيون حياة جديدة. لأعترف بأن هذا ثانوي عندي، فالحقيقة تكمن في سر وسحر الانتظارات؛ فإذا جاء الربيع انكشف السر، وسيتجلى السحر بجميع وجوهه، سيفتح أحضانه وأبهاءه ... ويتم العناق. أما في هذه اللحظة، وأنا أخط كلماتي هذه، وأرغب أن أبقيها معلقة، فالربيع محجوز هذا العام بين قوسين، بالضبط مثل حياتنا، أعمارنا وتاريخنا، آمالنا وانتظاراتنا التي طالت، طالت، طالت، لكم طالت!

فأين أنت أيها الربيع؟

لكم أريد أن أطوي الصفحة كاملة، إنما ليس قبل أن يأتي الربيع ... فتعال.

باريس في ٠٤/٠٥/٢٠٠٩م

رحلة ذات بين الفصول

فصل الشتاء

متى تصيبك رجفة اليأس؟

لست معنيًّا باليأس — لو افترضنا أن له معنًى مشتركًا بين الناس — لأن بيننا سباقًا قررت ألا يهزمني فيه، وإلا أكون قد مت وعندئذٍ ينتفي السؤال. إن الرجفة الفعلية هي تلك التي تتقدم خطوة سأقدم عليها، ما أتصوره نصًّا أو لحظة استثنائية، مثلًا، وسوى ذلك قلق هو ما يعطي للوجود معناه، وللحياة طعمها، وللإبداع مداه بانتصاره على «يأس» الفناء.

متى تثور عواطفك وتهب رياح غضبك؟

لا أغتاظ كثيرًا من الشتاء، فبيننا تآلف وتساكن سببهما أننا جُبلنا من عصف واحد تقريبًا مع فارق هام، وهو أن الشتاء يمضي وتظل عواطفي — لا أستطيع أن أعرف حقًّا ما هي — ملتهبة ورياح وجداني ووعيي ووساوسي وحنقي على وجودنا الذي لا يتوقف عن الانهيار؛ تظل جامحة. ما يؤرقني حقًّا هو أن أعرف متى سأهدأ، ولن أعرف، لأني وقتها سأصبح آخر، أي سأزداد ضياعًا …

ما هي الغيوم الملبدة في حياتك … وهل تتوارى عنها؟

حياة المرء مثل سماء تتناوب عليها الأنواء؛ ثمة غيوم النفس الحزينة تدمن حزنها، وبعض غيوم العيش العادية، وغيوم كثيفة لأمة وبشر وثقافة وإنسانية تنهار، هي أجمل ما فات ولن يعود، وغمة في النفس لن ترفع، إن رفعت، إلا في غدٍ لن تراه … فواحسرتاه!

هل في حياتك غيوم متصادمة ... ما هي؟

هي ما عنيت وما لا يُسمى وما يظل يضطرم في السويداء. أحسب أن الإنسان لا يواصل الحياة إلا بسبب وتحت ضغط الصراع المحتدم الذي يعيشه، أولًا، بينه وبين نفسه، وثانيًا، إزاء المحيط الخارجي المنسجم، فقط، في خداعه وفجاجته. منازلة بلا نهاية أو إلى النهاية.

هل تمر بفترة صقيع طويل ... متى؟

الصقيع ليس صورة، هو طقس يأكل العظم ويبيِّس الجلد. عرفته للمرة الأولى وأنا تلميذ في مدينة فاس، خلال شتائها المستحيل، وكان الزاد قليلًا فتعلمت الصبر، وصار كل صقيع عشته بعد ذلك، في باريس عمرًا، وفي موسكو، وبكين، وبلدان أخرى، مجرد ذكرى. أما صقيع الروح فلا ينتهي حين يخلو القلب من الحب، فيسري الوهن في الجسد والنص معًا.

ما الذي يحول الصقيع إلى دفء في حياتك؟

عندي غابة في حناياي اسمها الذكرى، أحتطب منها كلما اشتد زمهرير العمر، وأملك رصيدًا لا يفنى من لهفة الشوق، وأشعل حولي دائمًا حريقًا من الحنين، وأحب أن أولم للأصدقاء، وأنسى مؤقتًا أن «الفرح ليس مهنتي» ولا الثورة، أيضًا، وآخذ الكتاب بقوة.

فصل الربيع

ما الينبوع الذي لا ينضب في حياتك؟

هو حب أمي لي، وحيائي من أني لن أضاهيها فيه، فيزداد حبي لها أكثر ... آه، بعد فوات الأوان! وافتتاني بالحياة نفسها، بدوام دهشتي فيها وعناد الوصول إلى الاستثنائي والنادر في ركام الرتابة والابتذال ... وفاتنة في الحي «وأخرى تداويت منها بها».

متى تينع الخضرة في قلبك؟

حين أرى الأطفال يلعبون ويمرحون ويضحكون. عندما يسقي الله عباده ويغيث بهيمته بعد طول جفاف. حين يحضر عندي طلبة جدد في مطلع العام الجامعي، وأرى في عيونهم تطلعًا إلى المعرفة وفي وجوههم نضارة الحياة. كلما رأيت يدي أصابع امرأة ورجل متشابكة فيرفرف طائر في قلبي.

من الشخص الذي يغرس فيك شتلات الأمل؟

هو الإنسان الذي يمضي قدمًا بإرادة صدقه وعزيمته ووفاء لُمُثل لا يهمه أن يتنكر لها الجميع. البسيط المتلفع بصمته، غناه في داخله لا في رصيده البنكي. الذي لا ينسى حين

يمر بمشتل أن ينحني مبايعًا الورد. من يعتبر أن الشعر أقوى من الجبروت والاستبداد ... وذاك الذي يتخطى النمل فلا يدوسه، يتركه يكدح خارجًا من الشتاء ليتنسم الربيع.

متى تعزف قيثارة الطبيعة على قلبك؟

في التبدل السري والحثيث للفصول وخاصة الخريف. تعلمت في باريس وضواحيها ألوان ومفردات الزمن الطبيعي. حين تبدأ العصافير في الرجوع وأتقاسم معها فطيرة الصباح. هناك أشجار كأنها تستأذنني بالرحيل. الفرح المذهل لزهور تتفتح بالدفء والتغريد العائد. أن تكون في دمشق أو بغداد، تشم الشمس، وتحس أن الشمس عربية.

ما أجمل زهرة في حياتك؟

هي شقائق النعمان، لا وصفًا أو استعارة ولكن من طفولتي البعيدة حين كنت أقطفها من الحقول، في برشيد حيث ولدت وظللت متعلقًا بها كرمز للجمال والزوال. كلما نظرت إلى لوحة كلود موني «شقائق النعمان» تزداد دهشتي من قدرة الفن على التفوق. ولكل موسم من حياتنا زهرة، وأجملها غدًا زهرة السكينة.

ماذا تقول في النجاح، عنه؟

هذه خصلة تدغدغ الكتاب والناس عامة، وهي مصيدة لمن يقع فيها. تراه يخسر ذاته في معرض الفرجة، أي يفشل. أُومن بتوافق الإنسان مع ذاته وإخلاصه لما يريد، ولمن حوله طبعًا، وأن ينسى بعد ذلك صغار الأمور ليبقى جديرًا بحب كل أولئك ممن وهبوه نعمة الحياة، أو علموه حرفًا، أو سكبوا في روحه كلمة السر، الدليل الأقوى لنجاحهم، أما أنا فأووف ...!

فصل الصيف

هل تؤلمك حرارة الانتظار؟

«لا أحب الانتظار. يمضني. فيه بعض شقائي. أُصبح آخر بسببه. أتبعثر. أفقد نقطة ارتكازي ... المفترضة. أعرف أني سأتغير قبل حلوله فينقض عليَّ دفعة واحدة. جذبتني مارغو إلى أحضانها فسألتها همسًا: «خبريني، هل تأخر أم مضى؟» تساءلت بمكر: «ماذا تقصد، هل تعني أنت أم حبنا؟!»» (من قصة لي بعنوان: «اسم الغائب».)

هل تلهبك الصراحة الزائدة؟

أرحب بكل صراحة صريحة، أي مقصودة لذاتها. هناك من يلتمس إلى الصراحة لغة ونبرة التجريح والإسفاف ومثله. من هنا بعض أهمية الأخلاق والأسلوب في الحياة. بدون

أسلوب لستَ أنت صريحًا أو كاذبًا أو مداهنًا، وخاصة بالنسبة للكاتب وللمحب، أيضًا. طبعًا يتوقف الأمر على الموهبة والشجاعة وأن تتطلع دائمًا إلى أفق بعيد ... هناك!

متى تشعر بمداعبة النسمات الباردة وسط قيظ الحياة؟

حين أشعر أني أنجزت ما ينبغي بما يرضي ضميري. حين أجد الكلمات والصور المناسبة لقول ما أريد. وحين ترخي الصداقة ظلالها فيسترخي الأصدقاء في فيئها بلا حساب. وكلما تذكرت طفولة كانت صافية وغدًا لأمتي ربما صار أبهج ... ويا إلهي حُبًّا نأى أظنه يطرق الباب فأهبُّ إليه فـ...

من هو الشخص أو الشيء الذي يحرك فيك أمواج الكراهية؟

من قال عنه الشاعر العربي: «أعلِّمه الرماية كل يوم/فلما اشتد ساعده رماني.» العقيم الذي يعاند عبثًا في حلبة الموهوبين. والذي يمشي في الأرض مرحًا. وجميع الذين يستبدون ويسرقون حقوق الناس، والدجالون، المحتالون في كل ميدان. والذين يدوسون على النمل ويضربون الكلاب في بلداننا. أخيرًا أنا لا أكره وإنما أحتقر وأحذف، لكي أنسى ... ربما!

متى تظن أنك قطفت أول ثمار النجاح؟

إذا جاز لي أن أسمِّي الأمر كذلك وأتوافق مع منطق رفضته أعلاه، فسأتذكر أن المرحوم والدي عاد مساء يوم إلى البيت وبيده جريدة العلم المغربية — كان ذلك في نهاية الستينيات — فرأيته متهللًا شديد الانشراح وما هي إلا دقيقة فرد! إثرها الجريدة التي نشرت لي قصة بسيطة واسمي بلقب أبي — وهو خريج جامعة القرويين — مرصع في أعلى الصفحة، ومن يومها وأنا أحاول أن أبقى وفيًّا لروح ورضا ذلك المنشرح، رحمه الله.

فصل الخريف

متى تصف الشخص بأنه: شخص بلا أوراق؟

بداهة الذي لا يعرف معنى المودة. الذي لا يقرأ. لا يتألم من شيء ولا يأبه لشيء. من لم يقتنِ باقة ورد في حياته. الذي يمشي دائمًا منحني الظهر غير منتبه أن السماء فوق رأسه — العبوس القمطرير — من لا يعرف من الألوان غير الأبيض والأسود. الذي لم يغامر أبدًا.

هل تعترف بخريف العمر؟

الطبيعة أقوى من الإنسان رغم أنه أمضى حياته على الأرض يحاول تطويعها، وحتى قبل أن أبلغ ذاك الخريف؛ فإني لا أتهيبه وأستعد لملاعبته وإرجاعه إلى صباه لو أمكن. المفارقة أن هذا الموسم ليس بداية الخرف أو الذبول، كما هو المزعوم، بل منطلق إدراك الوعي بالحياة والعض عليها بالنواجذ. العري والنحول هو استعداد للوثبة القادمة. يقول هيرمان هسه إن خريف العمر ينبغي أن يُستحق، وهو أعظم محطة في الوجود، ودون ذلك لن نعرف قوة الشباب؛ عندي أن كل شيء ينبغي أن يُستحق وإلا فهو العبث.

ماذا تعني لك هشاشة الأحلام؟

هناك الحلم بمعنى التمنِّي والأمل في تحقيق أشياء صعبة أو باهظة أو الوصول إلى مركزٍ ما، وهذا فعلًا هش. وهناك منامات الإنسان وليس أفضل من فرويد مرجعًا في هذا البابٍ. ثم إنني تساءلت كيف أن أحلامي قلَّت في السنين الأخيرة؛ فلم أجد تفسيرًا لذلك سوى أني صرت غارقًا في الحلم تأخذني إليه شخصيات وعوالم قصصي ورواياتي؛ هذه التي جعلتني أزداد اقتناعًا بهشاشة الواقع.

أحداث اصفرَّت وسقطت مع شجر الخريف؟

انتفاضة الدار البيضاء في ٢٣ مارس ١٩٦٥م؛ ثورة البولشفيك بزعامة لينين، ثورة الضباط الأحرار في مصر، نداءات عبد الناصر: «يا جماهير أمتنا العربية»، قصيدة كوليرا لنازك الملائكة؛ ديوان «لن» لأنسي الحاج، و«إنها لثورة حتى النصر!»، وكثير.

هل ترى إلى الخريف أنه يحمل في طياته بذرة الربيع القادم ... أم أنه مرحلة تسبق فصل الصقيع والبيات؟

كنت في الرباط حين حل أوانه فتأجل، من أجلي تأجل الخريف. هو احتفال يعتريني ليهيج حواسي. تهيج من فرط الرؤية، من فرط اللون، من فرط ورق الشجر. وأنت يا نهر السين امشط سالف مائك في صباحة محياه، بألوان هذا الورق الماجن. وانحنِ له في «منتزه مارس» الباريسي؛ حيث كان ينتظرني لأجمع الأصفر والزعفراني والأرجواني، وخفقات قلبي الواقعة من شدة الحنين، ولكي أزداد إليه بالشوق ضرامًا، وكل حرائق العمر منه مضرمة ... فإن وصلت يا خريف إلى هذا الحد من القراءة اعلم أني صرت من رماد، فاجمعني وكلماتي واختر موقعًا ينفسح فيه نهر السين وانثرنا لنستجير بالماء بعد أن جربنا الكي الذي قيل، والله أعلم، إنه آخر الدواء.

الجزء الثالث

وشم الديار

بغداد ... لو حكَت

إلى «أبو بادية» في منافيه.

مثل شروق يتوضأ في سمرة النهر،
أو كوكب تخب حوافره فوق تراب الأزل.
لعلها المرة الأولى تهفو السماء إلى أعلى منها،
وكل خفق جناح يصير ظلًّا لأرضها،
حتى أراها اقتربت فحكت من داخلي
ثم عادت إلينا خرجت فأمطرت،
«وعضت على العُناب بالبرد.»

* * *

في الزمان الذي لم يولد فيه إلَّاها،
سرى إليها الضوء الندي، وقتها،
الجلنار لها وشم، والنجم رعشة البداية،
أما السعف وحده فتضرع كعبادة
كلما رغب التائهون، مثلي،
لمعرفة، لتيهٍ في طفولة الحلم،
لتاريخ الشوق، خفق الشرق،
لوعد بقيامة نهضت على أكتاف الفرسان،

أهواء الشعر، قلق الشعراء،
جاءوا واحدًا، لا زرافات، دائمًا وحدانًا.
* * *
لم أخبر أحدًا، أبدًا أني إليها ذاهب
هي الذهب — أنذرتني — سر محبتنا الكتمان!
كذا أخفيت الخبر عن الخبر،
وودعت أهلي سرًّا متخففًا من أي حمل،
أتعتع بولع فائق كغادٍ إلى الأبد.
لم أعرف ما جرى للدنيا بعدئذٍ،
ما اسمها، شكلها، قبل نذر الحطام.
* * *
أنا تركت هناك يدًا تلوِّح بالخفقان،
ليال طوال أمخر في غرة النهر،
فاتحًا ذراعيه كالسيل نحوي،
يشدني إلى تراب النجيع،
نتراءى في صقيل النطع،
السيف مغروسًا في القلب،
قلبي غمد لها أم لنجواها،
وعلى جبهتي تتربع الشمس،
اصطلت بنار حرائقها.
انظروا فجوفي إذا أطللت منه
مثل شراييني مخيض دم، فنار لهب.
* * *
في ذلك العهد، الآن يُسمى بائدًا،
رأيت أقوامًا بكل ألوان المعزة والمعرة،
يتدبقون على بابها طوفانًا من العُرب.
من بشر عجب يباركون سيدها،
ويناغون الشمس والقمر، بعد الله، ليحفظها،

يدعون الإنس والجن معًا أن يعبدها،
والليل إذا سجا، والنهار إذا تولى، أن يؤلهها،
بأم العين رأيت العين صارخة من بقايا العرب،
كل ذاك الجرب، بذُل السؤال وخزي الطلب،
ومليون قافية — كذا — للطرب،
وكم قافلة للعبيد منهم تنيخ الرحال،
لتضعن عند رب الأرب،
ترغو جمالًا بكل صنوف الأدب،
ولا شيء يحفظ ماء الوجه، أي وجه؟!
لا ملعقة من ذهب في فم أسيادهم،
ودوام شكوى بفرط الشغب.
أفٍّ وتبًّا، لو قليل إباء، لو نذير غضب.

* * *

أم يا ترى غير ذكرى صديد ما تفرك العين،
مُر طعم البصر، وما كان هولًا في الزمان،
صار سيفًا من خشب ... أفٍّ وتبًّا،
أهذا كل ما تبقَّى في جراب المهانة
يا مسخ عرب؟!

* * *

القمر الذي قابلني في الطريق إلى بابل
وجهني صوب أشلائها،
وهي بين المنهبة والمنكبة.
سماها بشعاع، فاستفاق الضوء في قلبي
تقطر شوقًا واستضاء الهواء
صعدت بابل برجًا في علو السماء.
وطفقنا ننشد من حنجرة الليل أغنية
تباريح هواها
ننفخ في السور، في الطور سنين

قدر هو هذا البلاء
أم تراني أدمن الشوق إليها حد الفناء؟
* * *
حين لم أجد الماء تيممتُ شذاها
صعيدًا طيبًا، فتهاطل المزن دمًا
رعفت حواري الكرخ
دوالي الرصافة طرًّا،
أنكرَتكَ أبا الطيب البيداء،
لا الحي حيُّك، لا سامر، لا بادية.
حميد ابن بابل صار رقمًا في نداء
أين الفتية البِيض؟!
لن تجمعنا بعد يا جرير المجامع،
لن يقول حميد جئني بمثلهم
تجوع الحرة، أواه، ستجووع
ولن تبيع عرضها هند ولا أسماء.
* * *
بم التعلل؟
لا نديم، لا كأس، لا إسراء
«أريد من زمني ذا أن يبلغني»
تكاد تقول
ما لم تبلغه من نفسها الأنواء
غدوت وما يشجي فؤادك غيره
وطن البهاء ذا نثار هباء
تنزل الأحزان ساحتها سوف، ليكن
بغداد أحببنا أمس، غدًا موعدنا
أنت خبرتني، خبرت عشقي،
دوما فيه سراء وضراء.

آخر مغناة لبيروت

إلى فاديا جحا سيدة الكتاب.

١

لا أميل إلى الفجائع،[١] ولا أحب المشي في التشييع، لأن قدري كعربي ربطني منذ الولادة بموت يومي صار مني، يتغذى من حياتي، وكلما انتزعت حقًّا أو ناغيت حلمًا هتفت أني أحيا ضده، وما ذلك إلا لحين. هكذا تعايشنا، كما تتعايش بيروت، منذ متى؟ بين أقدارها الصادمة والواعدة، تنداح في منامها، تزهو في الرؤى، وتنغمس في الدم حتى تصاب جدرانها وأرصفتها بالرعاف، ثم من هول ما تعيش، تنتفض ضد أهوالها، وهو جمع قليل، هاتفة أريد أن أحيا!

٢

رأيتها دائمًا تستغرق في دهشتها بين شهوة اليومي، وشجن الليلي، بينهما القمر الجار يغار من سلاسة النهار، والصخب النافر من عروق الأرض، وطعم نبيذك بخبز حار. رأيتها قبل ثلاثين حولًا وأنا فوق العشرين فقط، شافتني هي البديعة في ذاك الزمان

---

[١] كُتِب هذا النص إثر الإغلاق القسري لمكتبة «راس بيروت» بشارع بلس، وهي من معالم المكتبة العربية في بيروت، للصديقة المكافحة فاديا جحا (٢٠٠٨م).

فآوتني فصارت الخليلة والهيام، تبادلنا أول عشق على إفريز السماء، بعدها هبطنا أرضها تساقينا حتى الجمام، تشابكت أصابعنا، ندري أو لا ندري، نلتقي أو نفترق، والوقت بين أيدينا صهد وإعصار.

٣

جئتها من مغرب أضاء فيه الشرق بقناديل العربية، بوعد لجنة سندسية، وبيارق تزهو كالفتنة الأندلسية، وهي في كل غدوة وروحة وصلي وفضلي وصلاتي، بعد أن اصطليت بنار الأزل؛ جئتها حالمًا ومقدامًا، فوق رأسى أعلام طارق، وصليل جيش عقبة، أهدر بالفتكة البكر، وطني سمرتي المغربية، عانقت وطنًا، لا آخر، بل أشد اضطرامًا ونضارة، ونهلنا شعبًا وقلبًا من ينابيع بيروت، يوم كانت، أواه، قبلة الأبدية!

٤

كنت تعبر من مجاز إلى المجاز، لا تعرف، أمعبر هو أم مهرب، أم نزوة محرمة، كما هي الاستعارة، كنت تقفو أثر الأجداد، تمشي في غيِّك تارة، تسبح في دمها أخرى، في الحالين تترنح بين الأضداد، هي ذي مدينة موهوبة على خد الملاح، محمولة فوق الأسنة والرماح، الكاعب الحسناء ترفل في الدمقس، كل العواصم غيرها بِيد، قلت، وحدها يا أنت ريح وراح، لكنت تطوي برًّا وبحرًا، تومض في الجوانح نارًا أو كأنك تضمر ثارًا، تسأل كيف أقدح الإعجاز، أجابتك اعشقني أولًا، طويلًا، فما كل سر يباح!

٥

ومحضتها ثقة عمياء، زوَّجتها نسغ العبارة، أرضعتك الشهد، لست للحصرم، أنت لداني القطاف، لهجت بذكرها، صرت تسبح دهرًا من روشة المتوسط إلى أطلسي الضفاف، الموج يغسل وجهها في الصباح، الشعر في المساء لها وشاح، والدهر منها حلم يمخر بالجواري المرسلات إلى العلى، تارة من كحل أهدابها، وأخرى سحب سود، لم لا مواكب هي للزفاف.

كتابك دائمًا باليمين، بالقوة دائمًا وبأنفاس الحنين، وطور سنين، كيف تنكثين عهدك لي، ضيعت قلبي فيك، صدقت شعرك، فكرك، آمنت بك كاليقين، وعدت أنكرت نفسك،

أنت أرض جبران النبي والكتاب، من أنت بلا كتاب، أو سقط النصيف، عم الضباب، أم تراها خاتمة المطاف؟!

باريس في ٢٣/١٢/٢٠٠٨م

نص في حب العرب

نص في حب عمان: الطريق إلى«مرج الحمام»

كنت أدخل من قبل إلى الشرق العربي من بوح شهرزاد، ثم من بغداد، قبل أن يفسق فيها الغزاة، ومن قاهرة المعز اليوم بلا عز، ومن بيروت قبل أن تبور، فصرت آتيه من سماء عمَّان، أنزل كل عام بمطارها الفسيح موشحًا بالضوء، والشمس رأسًا تفرش على بشرتي الطريق، ما ألبث أن أشم جلدي، ومن طعم مميز للهواء أعرف أني وصلت إلى بلاد العرب.

كل من يقصد عاصمة يعلم سلفًا أنه ذاهب إلى بلد محدد، بالجغرافيا الطبيعية والبشرية والسياسية؛ فإن كانت عربية تراه يزيد إلى هذه الخطوط علامات إضافية ضرورية، يفرضها عليه وعيه ولاوعيه، حتى إنه — مثلًا — لا يقتنع أنه واصل إلى البلد بالذات إلا عندما يدخل إليه من باب واسع أو ضيق، بمعنى أن حيازة بطاقة السفر، والتأشيرة إذا وجدت، لا تضمنان إلا احتمال الدخول، ذاك الذي يبقى متوقفًا على من يهش في وجهك ويبش، أو يلاقيك بعبوس، وأحيانًا، كما رأيتُ ذلك بأم العين في محطة حدود عربية برية يرمي للواقف جوازه بين قدميه، ثم يأتي ليدوسه عمدًا ويدعوه تحديًا أن ينحني لحمل جوازه، أو سيعيده من حيث أتى!

أما أنا فقد تعودت القدوم إلى عمَّان، لا الأردن بالذات، من غرب الدنيا، باريس تحديدًا، فأحس فعلًا بأن الأرض تدور، وأفهم معنى الدوران، وأشعر بأن حضني يمكن أن يصير بسعة الأرض وكواكب مجهولة لي حين أجد أحضانًا فارهة تنتظرني، ووجوهًا مضيئة كالمصابيح تنير الطريق بين المطار والمدينة، وأخرى بانتظاري من بين شفيف الشبابيك. لم أتصور أن تتملكني أبدًا، وأن تتحول عندي هذه المدينة بالذات إلى منتجع

سنوي شبه ضروري، أنا الذي، ولا فخر، ألفت مدن الغرب ببذاختها ومدنياتها الفائقة، حتى إنها أفسدت الود بيني ومدن وطني.

في البداية لم تكن عمان، عندي على الأقل، أكثر من معبر إلى العراق عندما أصبح تحت طائلة الحظر الدولي سنة ١٩٩٢م، وصعدًا، إلى أوان احتلاله من الغزاة الأمريكان، وتنصيبهم لشرذمة عملائهم. تصل الطائرة من الرباط أو باريس، فأنهي إجراءات المطار، ثم أغادر سريعًا إلى وسط المدينة، إما لقضاء الليل في انتظار الصباح، أو إلى محطة العبدلي رأسًا لاقتناء سيارة تنقلني إلى بغداد، التي كانت أمس بالإنسان وفي الزمان والمكان، وصارت اليوم في خبر كان. بين الوقتين أعبر عمان، أو أدخلها والوقت ظلام، وهي في سُبات، وحين كان يتأتى لي الخروج في ليلها فمتسللًا دومًا تحت جنح الظلام، كاللصوص والمهربين، وما أنا إلا أهرب عواطف ومشاعر محبة أحترق بها وأخترق سياجات حدود عربية أضحت شائكة الاختراق على أبنائها، ميسرة على الأجنبي وكل محتل غاشم. أركب سيارة الأجرة أولًا فتنهال على تباعًا أسئلة السائق كأنه يريد أن يفتح لي محضر شرطة، تصل أسئلته إلى آخر فرد لم أسمع به من سلالة آيلة إلى الانقراض. يظل يلح وأبقى ممعنًا في الصمت إلى أن يهديه الله أو لا يهديه، وفي الحالين لا يفوز مني ببنت شفة؛ لأن الصمت أجدر بي إلى أن أفوز بلقاء من شددت الرحال من أجلهم، وقمين بي أن أتكئ على هذا الجدار، جدران المدينة وأبهائها، وبيوتها، إلا مضاجعها الخلفية ربما، مقيمة فيه، إلى أن ينبلج فجر يوم جديد تتسامع فيه أبراج المآذن، تهز الأحياء والأموات تدعو كالنفير إلى صلاة يردد المؤذن ويعيد على السامعين أنها خير من النوم!

وها العراق مضى، لن يستعاد إلا بزوال الاحتلال، وخسوف الأنذال، ومن حسن الحظ أن الأردن باقٍ، سيبقى، وعمان جوهرته الهاشمية. هي مدخل شرقك الجديد، وأنت تصنع لك فيها الجغرافيا التي هي أبعد عن سياسة الجغرافيا، وأدنى إلى سياسة القلب، تهمس بينك كأنك تبوح بسر إليك: أريد أن تكوني مدينة روحي التي أضعتها في مدن قبلك، فلعلك تستردينني وإياها، لعلك؟ لا تراها تمانع، تنبسط أمامك الأرض بطاحًا، تمتد في سفوح تسعى إلى أن تتأمل تربتها فتنطوي في تلال، ثم أخرى تعلو التلال، ومن حيث لا تفطن تجد أنك انخرطت في السيل العرم؛ طرقات وأبنية وبشر، وهذا هدير كالشلال. وبينا أنت فيها يعتريك لحظة شك في أنها تفلت من الحس والبصر، هل لأنها ما تنفك تكبر وتتبدل اتساعًا ومعمارًا، وهو صحيح، أم لأنك أنت لا تريد أن ينقطع بحثك عن المدينة نفسها، شأن مقاوليها، نوعًا ما لا ينتهي حفرهم وانتزاعهم لأراضي البناء في جبالها، يشقونها

شقًّا، يا للأرض المسكينة لا تهجع أبدًا (!) بينكما فرق أنهم يضاعفون رقم المعاملات في البورصة، وأنت تضاعف أسهم الشجن والذكريات.

لكن، ما هذه المدينة التي كأنما وجدت في الطبيعة لتعاند السماء في علوها، وتغيظ الأرض في انحسارها عنها، تواصل بعتوٍّ ارتفاعها، كأن جبالها، ويحها، لا تكفيها، وهي تتمادى، تحسبها تبغي تركيع رجالها، فيما هم سادتها وعمادها. وإلا، ما صخرها العنيد، وبنيانها العتيد، حدًّا يدعوك لتسأل هل ليستفز الروح من خارج، فتأوي سريعًا إلى داخل، أنت الغريب الباحث في كل صقع عن نسيب. ما هذه المدينة تبدأ موجات، تتشكل سنامات وهوادج، لعل بُناتها يستحضرون بين الصعود والنزول مسير القوافل الغادية في كل اتجاه، تشد النوق بأعناق بعضها، والحداء وحده يشجيها ويوحدها، بينما تغوص في رمل كان في قديم الزمان تحتها، ونهر جرى بينها، قربها، وأنت تطأه اليوم تظن أنك تسمع خريرًا لسراب علا وجهها وقلادة دم حرون وشح نحرها، ما أهولها هذي الأرض يسري في أحشائها نهر اسمه السَّيل، كان سيلها، واليوم أمسى له الأسفلت غطاءً فسُمي سقفها.

المدينة مؤنثة بالتسمية، هل كل مدينة أنثى؟ يتوقف ذلك على حيث أنت، الموقع والهوية والثقافة، وبما أن السائد في ثقافتنا العربية الإسلامية يقمع المرأة، عمومًا، ويضعها في مرتبة دنيا، أو يخفيها تمامًا باسم الدين حينًا، والحشمة حينًا آخر؛ فإن عمَّان وهي تعرض تضاريسها في جسدانية أنثوية تتموه بأساليب شتى، ليحافظ رجلها على ما يفترضه في وعيه ولاوعيه وقار مدينته، بمعنى قليل من النساء والفتيات ندر ألا يظهرن محجبات، وعرمرم من الرجال في كل مكان، كأنهم ولدوا من فقاقيع هواء لا من أرحام نساء، ثم كثير من القنوط، على الأقل التحفظ الشديد في تعبير الوجوه حتى عند التاجر، كأن الابتسامة مظهر ترحاب ولياقة لا تليق بسلوك الرجال، أي هي للمرأة ينبغي أن تختفي وهي تزدرد لقمتها تحت نقاب. هكذا يندر التشبيه، وتضمحل الصورة، فمن أين سيأتي الفم والشعر إذا لم تتناسل الصور ويتهستر المجاز، وتصبح المدينة وهي استعارة حقيقة تُسمي أعضاءها بأسمائها الحقيقية، ولذلك كلما جئت عمان، ومدنًا عربية غيرها، لا أكفُّ عن البحث عنها في الخفاء قبل الظهور لأنها خفية. اذهب إلى فاس وستجد نفسك، وأنت تتزأبق بين الأزقة والدريبات والسراديب العتيقة، إنما تدريجيًّا تغشى عالم الأسرار، ومكنون الحكايا والأخبار، هو عالم الدراية الدفينة والغواية بأبواب سفلية، وسقوف محنية، وممرات ندية، وعتمات تنيرها وجوه كالبدور، وعيون أهِلة، وأصوات ينابيع يرتوي الظمآن بمائها يترقرق في السقايات والنافورات والعوينات الناتئة من الأرض وجدران التكايا والزوايا قبل أن تسري ريًّا، وتجري راحة في الحلقوم. تلك فاس.

ولعمَّان أوزارها وأسرارها، الخبيئة من مئات السنين، طلبت من روائي المدينة إلياس فركوح أن يكشف لي ستر واحد منها، فوعد ثم سها عن طلبي لأنا كنا في رمضان، أولًا، ولأن «أرض أليمبوس» عنده في يقيني خير الأوطان. لكن «وسط البلد»، الأزقة المحفورة فيه خاصة كسطور مؤشرة في كتاب، والدرج الصاعد إلى أعلى كأنما متوله عشقًا بالسماء حيث يقيم، والشرفات المطلة على شوارع صال فيها التاريخ وجال، على جدرانها كالوجوه تجاعيد وخدوش وأوشام. هنا، وفي تلافيف نظرات نسوة مسدلات الأهداب، وثنايا أجساد مثقلة بأسرَّة الغياب والعيون الحارقة، في الصخب المتأجج، والروائح الفاغمة لتوابل صاعقة، وباعة يغنون للكوسة والبندورة، فيما التفاح والرمان كناية عن نهود تحت العباءات مرفرفة جارحة، مهداة لليالي السهاد وآهات محبين، لو تفتقت بحب فتكت بها أن تفقس طير أبابيل قبائل كالجائحة. كل هؤلاء الغادين، والرائحين، الهابطين والصاعدين، من رأس السير، تلاع العلي إلى سقف السيل، المارين على حافة الجسد الأبيض الموله دومًا بعشق ندي، لا يعرف أين يطفئ ناره، ولا ماء يجيره، ولا هذي الأرض، بكل ما أنجبت من أنبياء، من رسل وعشاق وشهداء، ببوح أعظم الشعراء، ولا تنجده، الجسد الأبيض مهرة جامحة، يذرع المدينة كل يوم من صياح أول ديك إلى آخر نجمة في السماء، طولًا وعرضًا، تنطوي الكيلومترات في عداده وفي عينيه شساعة بلا حدود للحرقات، فأين، إلى أين أحمل جسدي الأبيض يصرخ، شهوتي السمراء، كيف أجعل قومي يفهمون أن الإنسان يمكن أن يكون من رغبات صغيرة، ولتكن رعناء، أم لا بد أن نقيم في كل مطلع شمس عزاء، ولا نصحو إلا على مواكب الشهداء، وحين تسد في وجوهنا أبواب أي حلم، خلسة ضوء، نركب هودج الذكرى لندفن فحيحنا في ذكرى «البتراء»!

أما الشمس، فلي معها، هنا، حكاية أخرى، مجرد حكاية دغدغة، ها، ها، تنضم إلى ولع الجسد، ها، ها، مدد، مدد! يتوقف أبو بادية، الشاعر المجيد حميد سعيد، في منتصف الطريق بين خطوة لم تعُد تقود إلى بغداد، وأخرى ملتاعة ترد صاحبها، يرسلها كصيحة في وادٍ؛ يتوقف ونحن ننقل الخطو وقد تألق مبتسمًا باحتراز خشية أن يخدش وقار حزن عميق في الفؤاد، وأراه يسلم على ذراعه يمرر عليها يده اليمنى متلمسًا دفء شمس أقرب إلى الدفء منها إلى الحر. أحس بها دائمًا تدغدغ الأطراف العارية في الجسد، وأستحي أن أسأل أوَتحسون مثلي بدغدغة تنتشر في سماء فرحة، أو كضحكة طفل مرحة، لم لا عزف كمان، يتقاطع مع الصخب العالي المتموج في شوارع عمان، طرقاتها الهائجة، ليوقف سيل السيارات العرم، أين تمضي كل هذه الأساطيل تمتص رحيق الهواء، تزحم شاحنات الغاز

إذ تعلم عن بيع قنانيها، عجبًا، بسوناتات لموزار، والدفء أشمه بينها فوق ذراعي يحلو لي أن ألعقه كزبد بحر حاد الملوحة، هنا أملأ رئتي صدقًا لا مجازًا بالمدينة، وأعتبر أنه طقس حي لا يتفوق عليه إلا حرارة إيمان المصلين في المسجد الحسيني، ويضاهيه عشرات، مئات العمال والفقراء ممن يتناوبون على وجبات الفول والحمص والفلافل بالخبز البلدي الحار، يأكلون بشهية حارة، وهم يحلمون بالجنة أو بست الحبايب ستزف لهم أجمل عروس، وبصحة جيدة ليتمتعوا بمزيد فول وفلافل، ولم لا شقفة كباب ذات يوم، أو ذات عيد، ولو في اليوم الآخر! وتبقى الشمس لغة الشرق العربي كله، تستحق من أجلها وحدها أن تسافر، أن تخاطر أحيانًا، وبما فعلت بي صرت أعرف أنها لا مثل باقي الشموس، لأنها ببساطة شامية وعمَّانية وبيروتية ولمزيد علم فهي تتكلم العربية، فصيحة تمامًا حين تنطق أبجدية القمر، ولها حرائق في كل الفصول!

يحلو لي المشي في الأسواق، لا لأتبضَّع، فذاك يحدث لا ضرورة أبدًا، الليل والنهار سربالي ونعالي، والحلم راحلتي، ليكن، إنما أسواق الشرق لها نكهة الأعشاب والرياحين والرقى، والسحر الخفي؛ ثمة ظلال الغموض، وأيادٍ مع أصوات متسترة تناديك أن تعال فتتبعها ولا تخاف أن تضيع وأنت ستضيع، مثل صوت انخطفت إليه في «وسط البلد» حسبته نهنه من ممر العطارين، منفتحًا على درج صاعد، حاد في عموديته، يتقاطع أخيرًا مع سقف بناية وجدتها تنفتح بدورها على زقاق لم أبلغه إلا بعد أن أمسكت قلبي بين يدي وهو يضرب: دك/دك، ثم قادني إلى درج ثانٍ، فثالث، أتبع الصوت يتبدل بين لهاث وهمس، كلما تعثرت تحسسني وشوشة وحفيفًا، وتجاذبني شهوة وتقوى، متأرجحًا بينهما أي بلوى، لا يكف الدهر يمتحنني صعدًا، صاعدًا إلى أن حسبت الصوت سيخطف روحي، أنا الذي منذ دهر خطفتني ألحاظ إلهية في دهليز سري بين جامع القرويين وضريح مولاي إدريس، ومنذئذٍ ونقاد من ثقافات مختلفة يجرون حفريات على قلبي لقياس النبض الخصوصي، بين جنس الإنس والجان. في النهاية وجدت رأسي تغوص في سحابة، وباقي أعضائي حتى أخمص القدمين أكواخ ودور ومآذن وشرفات وخمائل ومصاطب سطوح وشبابيك وستائر وستر من الله ودعوات إلى يوم الحشر ورجال يحملون حول أعناقهم لحودًا، ونساء سبيات، صبايا لم يطمثن أبدًا في حداد، وقصائد مشنوقة بلا إنشاد، وكمثرى وتفاح ورمان دائمًا وقوارير عطر ونبيذ مثقوبة تبح بالآهات، بالنشوة الموءودة، والجنة الموعودة، ورجال كالغيلان فرشوا لحاهم في الشوارع، ومثلهم حليقو ذقون يفحصون جماجم الأحياء، وخلفهم من يلقي بالموتى والأحياء معًا خلف

جدران النسيان؛ هنا صرخت في علوي كأنما من كابوس: أنا عمَّان! صرت الكائن والمدينة وجسدهما كما كانت إرم ذات العماد ... لم يوجد مثلها في البلاد. طفقت إثرها أنزل تاركًا رأسي ينام في فراش السحاب، وجسدي، ما باله لا يهدأ، يعدو إثر تلك المهرة الجامحة!

قبلئذٍ، في غفلة من حواسي «سرقتني» الشام، ربما بسبب أحمد المجاطي، الشاعر الذي لا يستحقه المغرب، ويعيث بالقوافي في أرجائه بعده الأذناب، مات وفي نفسه كثير من غصون البان، الذي خانه في الشام، وقع في هواه مذ رآه، وكان قبلئذٍ، أيضًا، قد سباه سعيد عقل تركه بلا عقل لما أنشد: «الهوى لحظ شآمية، رقَّ حتى خلته نفذا!» أما في قلبي فلم يجد قمر دمشق وهو يرميني بسهام جديدة وأنا في «أحلى طلة» من قاسيون ما يصيب بعد؛ فقد كان أكثر من سهم قبله قد نفذا، وها أنا، بعد المجاطي، بعد رجال شداد، نعيش اليوم كل هذا البددا!

لأعترف بأني وضعت بيني والشام حصنًا منيعًا، لا طاقة لي أن أزيد هلاكًا على هلاك، بقيت فيها أقل ما يمكن من الوقت كيلا أصاب بلوثة الأبيض المحمص بطراوة الهواء، أطفو كلما رأيت عيونًا ستسحبني إلى الجوف، أو ستلقي بي من يدي المدبقتَين بغبار الأشياء إلى سماء الأسطورة، فأبتعد، «يصير بدي صَورخ» كما يقول سائق التاكسي الذي يحاذي سور دمشق التاريخي عابرًا قربه فعلًا كصاروخ أرض أرض فقط، أما الجو فمسوَّر بالإنذار.

لأعترف، أيضًا، بأن من الأفضل لك أن تطفو وأنت فوق سطح ساخن، من أن تحترق في جوف أرض الغليان، لا تحفزًا من أجل غدٍ وإنما حسرة على ما فات، فبالأمس كان العرب يمضون فاتحين لانتصاراتهم، واليوم ينكصون إلى قواقع هزائمهم، يعتكفون فيها عامًا بعد عام، ولو أني أسير قمر الشام أي فحولة أظهر، أي مهر أعطيه، أي نهر يسقيه إذا جف الهوى «بردى»، فلا أملك أخيرًا إلا أن أتجمل بركعتَين في المسجد الأموي، ومثل أجدادي ما أكف عن الرحيل، ما أسعفني أمس، فهل يسعفني اليوم بكاء على الطلل المحيل؟!

أعود إليك عمان، ولم يكُ في الحقيقة فراقًا، وإنما شرودًا عمدًا من أجل مزيد اشتياق، وبعبارة أقل مناورة فنحن كلنا في الهم شرق. وصلت إليه ونفسي مبتردة، أطلب السلوى، وأتوقع البشارة لمجهول، ولا طلب لي في الكتابة، ما عادت أُرَبا وهي تُسام خسفًا وتُنشر عهرًا، ودِّي أن ألتصق بالكائن، باللحم الحار وتغضن الأشياء، أرى هذا كله كنبت يينع في يدي؛ فإذا هي شجرة، غابة، غضارة، مرج، هرج تستفيق عليه عمَّان وتبيت، نمشي فيه جميعًا لا يضجرنا إلا الصمت، أنا القادم من الغرب البارد، الصامت، المحنط بالعلامات والأيقونات.

المرج، لا بد لي من الذهاب إلى المرج سألت سيدة الجسد الأبيض، سواء كانت حقيقية أم تخيلًا من بنات هذياني، فلا هي التفتت، ولا انسحبت من مسرح التخيل، أراها في جيئة وذهاب بين الوعي والإحساس، وكلانا يمسك بطرف من الخيط، أريد المرج فيما تهرب منه وهي فيه. وما هو في النهاية إلا مكان، ربما صار زمنًا لو جعلناه أرض نبوءة، كجبل نيبو، مثلًا، أو إلهًا منحوتًا في أخدود صخري بالبتراء، أما الآن فهو عندي مبتغًى بالاسم فقط، ريثما تنجلي حقيقة الرغبة، رددت في سري مرغمًا؛ فأنا لا أنسى لحظة واحدة أني هنا في أرض الكتمان، وإلا لم تعجُّ بالصخور، وترتد فيها النظرة والابتسامة إلى الداخل دون العيان؟!

إذا أخذت الطريق السيار خاصرة عمان، وسرت كأنك تنزل جنوبًا باتجاه المطار، تنتصب على يمينك لوحة تؤشر لمكان اسمه «مرج الحمام»، وهو في الخريطة يقع غرب العاصمة قبل بلدة ناعور. سلكت الطريق نفسه سابقًا لكني أرى الإشارة للمرة الأولى؛ فشغلني عن كل شيء بأن أصبح همي زيارة هذا المكان. لماذا؟ سألت المراوحة بين الواقع والخيال، فأجبتُ بإلحاحي في الطلب وكفى، ولم أكن أنا نفسي أفهم ما خطبي، ولم ألح في السؤال. أقبلت في الغداة وامتطينا معًا مهرتها الريح، فحذرتني أن أمسك جيدًا بعُرفها أو واحدة من جدائلها لأتجنب السقوط من علٍ، لقد كانت تدفع ذراعيها تشقُّ السماء من ناحية الغرب أشطارًا. بدل الانضباط لدعوتها وجدتُ يدي تدخل فيها، تحت سحابتها أم تنورتها، لا أميز أيهما، وصعقت للمفاجأة أحس بأصابعي تخشخش تارة في العشب، وأخرى تسري في غدير، وطورًا تنزلق فوق مساحة ملساء أنعم من حرير، دون أن أكف تساءلت هل موعدي مع إنس، أم متخيل أم سمكة، أم هذا لاشعور قراءتي للوحة الطريق يحضر أمامي أتحسسه بأصابعي كما لو أني أدركه بوعيي، وها هي لعبتي تفتضح أسرع مما توقعت، أما حبل الغواية فهو كالكذب قصير. لا قوة تردعني بعد أن كشفت لعبتها، وإلا لم جاءتني كالسمكة، الدليل أننا ما انفككنا منذ التقينا، مذ متى لا أذكر، نعوم، عمَّان لنا بحر لا ساحل له، وإن وجدت فيها يابسة فليست إلا لشفتيها ونحرها وتفاحها وخوخها وتلالها وباقي ثمارها الطيبة، وصولًا إلى «مرج الحمام». إنما أين يقع، سألت؟ خذ ما في متناولك الآن، سأريكه في المرة القادمة، أوَلا ترى أن المدينة كلها في حضرتك فتنة وافتتان؟ بلى ... الله يسعدك يا عمَّان!

دمشق في ١٢/ ١٠/ ٢٠٠٨م

إشراقات من سيرة «العثامنة»

١

لا بد أن «العثامنة»[١] تلك الليلة كانوا في البرزخ؛ لأن الصواريخ التي بحثت عنهم في كل شهاب لم تعثر منهم سوى على ظل الروح، التي هي أخيرًا من أمر الرب، أما الجسد فقد كان، طار، ليرتدي كفنًا أبيض مثل حُلي السحاب، ويغفو في غرة الليل الساجي، هو الفراش والغطاء، البدء والمنتهى؛ كفن مثل الأعلام البيض في مدخل المرافئ، تستقبل وتودع إلى ما لا نهايات الرحيل، وحتى عندما تنفد الأنفاس وترى آخر النوارس عائدة إلى ضفاف المعاد.

٢

«العثامنة» أنفسهم لا يطيقون البقاء في سُررهم، ما دامت أرواحهم قد عافت الجسد منذ سفر التكوين، وما تناسلوا إلا ليتناوبوا على حراسة النجوم خشية، أن يسرقها غربان الليل قبل غربان البين. هم يتظاهرون بالعودة إلى البيوت أول المساء ليوحوا إلى الجيران أنهم مثلهم؛ كي يذوبوا في نسيج الجميع، غناء وسهاد الجميع، لكن لا أحد يشبههم، والدليل أن الجيران حين افتقدوهم لم يجدوا في سُررهم إلا وشاحًا كان أبيض، صار أحمر، بدم خافق حلَّق للتو.

---

[١] «العثامنة» اسم العائلة الفلسطينية في بيت حانون، استشهد ثمانية عشر فردًا منها بينهم ثمانية أطفال وخمس نساء إثر غارة إسرائيلية.

٣

«العثامنة»، حين وقف الجد الأول فيهم أمام كاتب العدل يسأله من أنت، كي يدون اسم العائلة استعصى عليه الخط. رأى الحرف ينحرف، يميل يمينًا وشمالًا، والكلمات تتزنبق، تتورد في الحبر الداكن، والورق الساكن، ترعش أطرافه رهبة، وعيناه تلوبان في الرجل الواقف وسع بلاد، ثم ترتدان إليه والرعشة ملء الحرف، تماهى الخط بمعناه، بما لم يستطع تسميته أو وصفه. أدرك كاتب العدل أخيرًا أن الاسم سيبقى استحالة، لما اختار صاحبه الأرض قيامة.

٤

«بيت حانون» إذ ذاك كانت صفحة منبسطة. لا خدش، لا ندب، ولا حتى نظرة منكسرة. كل ما هنالك أن النساء يتجمعن عند حدود الحرش ناظرات إلى عين الشمس متى تبترد كي يواصلن جني الغلال، ويحضِّرن ما يكفي من الزيت والزعتر وكحل العين لأشواق الرجال. كل ما هنالك أن الرجال يخرجون إلى ظاهر البيادر، يقتلعون الحجر، ويمسحون جبين السماء بالغيمة الماطرة، كي تسقي البيت وأهله؛ لينبت في السهل الأطفال ووعد الغد.

٥

«بيت حانون» وقتئذٍ شجرة، حقل حنطة، مشتل ينمو فيه عشق الصبايا، بستان لحنين الأمهات، كانون تغلي فيه القهوة للساهرين، وللعابرين إلى طرق أوعر في حب الوطن، يوم كان ثمة حلم وطن، وشباب يذهبون إلى الموت كما يشرب الموج بعضه؛ أي باغتباط ومن غير أي كلفة. وآباء تعلموا أن يجدلوا آناء الحزن بأطراف الأمل، بصدور من عناد، بعين لا تطرف إلا لغنج القمر، تنحني إن هو أمر، والأصبع أبدًا مبصومة على الزناد.

٦

«العثامنة» يلدون الآن «بيت حانون» لتكون. واحدًا، واحدًا، نشروا لحمهم، فصدوا! عرقهم، بشراييهم خطُّوا لها الطرقات، وبالعين عنوانًا دقوه على أيديهم، لم ينسَ في سالف الدهر

ولا لما هو آتٍ. إنهم أجدادي وآبائي، فلسطين ليست مغناة، ولا توصية إضافية يذيل بها عبيد العرب ذكرى الزوال. فلسطين وجه محمد في المساجد المحاصرة، والمسيح في الكنائس الخرساء، هي صورة العذراء، تهز جذع حانون فيسَّاقط عليها دم مريم وميساء الجني، ويحكم لغضبة الأنبياء!

٧

جرت العادة أن يتزوج الأرض الإنسان. جرت العادة، أيضًا، أن ندفن موتانا في اللحد ونغطيه بالأجفان. حتى جرت العادة أن يجري الدمع هتونًا، لم لا أوَلسنا نتسربل طول العمر بالأكفان؟! لكن ما عهدنا أن نسمع الأحياء ينتفضون، طالبين موتهم قبل الأوان، ليفتدوا أرضًا وطنًا سيحال إلى معاش النسيان. لذلك لما ناموا صعدوا إلى أوج الصحو، تعافوا من وهم الأحزان. قالت أم الشهيد الفرحة: «والله ابني راح، رائحته مسك! روحه بلسم!»

٨

«العثامنة» من هم؟ من أنتم؟ من أين جئتم؟ متى ولدتم؟ كيف ظهرتم؟ على أي هيئة سوف تبعثون؟ ألف سؤال، من سديم وقتنا الخزي، وسخي دمع ما عاد يسيل. لن ينتظروا، لن يردوا على الصم، البكم، اللايذكرون، في نهر الغزاة يسبحون، قالوا قديمًا، واليوم بالخزعبلات يلهون. لن ينتظروا قصاصًا لا يأتي من أمة باتت بكماء، أو سماع أجوبة بلهاء، بعد أن نحرت بيت حانون الفرقد، سواء متنا أو همنا يومًا لغد، ويحي، كيف، كيف نحيا تحت إمرة السفهاء؟!

٩

جاءت الصورة مثل فطنة متأخرة، فتأملت الوجوه الصابرة، أصواتهم الضارعة، والبقايا. لا شيء غير البقايا، ما كان رأس دمية، دمية برأس مقطوع، رأس مقطوع، يد كانت ستعانق الدمية، يد مبتورة لم تعانق الدمية، دمية لم تبتسم لها الطفلة، وجه طفلة لم ترمش؛ لأن الدمية يا صاح لم ترمش بعينيها الحلوتين للطفلة، وعلى ثوب الكتان صورت الكاميرا في نهاية اللقطة لطخة، مثل عار، للمحقق يومًا في ملف هذي القضية أن يسميها، إن شاء، حجة الاغتصاب.

١٠

إثرها تعاقبت صور أخرى: كأن ترى أكداسًا لأذرع، أرجل، آذان، سيقان، أثداء مخيطة بأمعاء، إلى جوار قدم داخل حذاء مفصول عن ساق مبتورة، عن فخذ، وحوض عربي معلق حوله جنود يتسلمون أجورهم شرط ألا يقاتلوا، وخاصة ألا يُقتلوا في أي حرب لن تخاض. أو صورة يطلق فيها الجندي العربي النار على شبح يقدُّ قميصه من دبر، فيرى نفسه في المرآة يصرخ فيه: قاتل! قاتل! لكن قائد الكتيبة يأمره في النهاية: أدِر ظهرك للمذبحة!

١١

وميساء،[٢] ليس من عادة ميساء العثامنية أن تنام قبل افترار ثغر القمر. حتى إذا أطل، وانقشع الديجور، قامت، رقصت بين الأتراب وهي تدور. بضع نجيمات تتلألأ فوق مخدتها، يسمعها الليل تغني كالشحرور، تسمع سامرًا في الحي يدندن: يا ليل يا عين، يا عين يا ليل، كان يا ما كان، كان في رَبع كنعان، أرض فلسطين؛ بلسمان لكل قلب ولهان، وقعت مريم في أذرع التنين، فيما وضعت ميساء الخنصر بين الشفتين، تحلم أن غدًا سيبوسها بدر البدور.

١٢

يقظى ظلت عيون الليل، حتى ذبول القمر. ما رف لها جفن ولا أغواها عن فطرة الحب نظر. يقظى، والسامر ناغى: «أفق خفيف الظل هذا السحر/نادى دع النوم وناغ الوتر.» لم يكمل سامرنا شجاه، ولا ذاك الليل ارتقى ذراه ... فجأة هجم التتر، لقد هجم التتر، كما فعلوا من قبل، يا العُمي ويا أولي الأبصار. اختنق المؤذن، احتبس التكبير في حنجرة المئذنة، هوت صوامع الله، ويحنا، صحت ميساء كي تسلم الروح إليك، أوَيرضى الله عن هذا القدر؟!

[٢] مريم وميساء، من بين الصبية الذين قتلتهم الهمجية الإسرائيلية وهم نيام، في الغارة على بيت حانون، فجر ٨ نونبر الجاري، وذكر القتلة بصفاقة أنه «مجرد خطأ تقني!»

١٣

«العثامنة» لما فتحوا أعينهم ثانية نظروا، كعادتهم، إلى أعلى، لا أسفل. وجدوا قربهم بيت حانون، كما اعتادوا، الصباح جالس عند العتبة، أطفالهم سينغنغون طلبًا للرضاع، ورجالهم بسملوا، على وشك الوداع، وكل ما يفتح الشهية للحياة جاهز، وغضبتنا غضبى دائمًا حتى النخاع، والقِبلة نفسها ملأى بالمصلين على أهبة الإقلاع؛ فظنوا أنهم سيطرزون صباحهم بوَشي الندى يشمرون بعدها درءًا للمسغبة؛ ظنوا قبل أن ينفجر الهواء ويهتز الأزل.

١٤

لم يحدث سوى أن تبعثر الموت المؤجل في الزوايا، تمزقت صحف الألى، الأخوات يزغردن لزفاف متقدم، لعرسان الريحان، والأمهات يلقين الرز، يعطرن النرجس بالخرق المدماة للصبيان، هل ولولن حقًّا، أم تنادين إلى طلق الأرض بعد طول مخاض تقول للإسرائيلي القاتل خذ مزيدًا مني لتقتل أكثر، سأظل رغم كل القتل أملأ الحقول فلًّا وعنبر، والأمهات، الأخوات، الجارات في كل الأركان، يرفعن أعلى صيحة: الله أكبر!

كل دم مسفوح، ونحن بخير!

١

لا بد أني أمتلك قدرًا كبيرًا من الادعاء، إلى حد البطر، لأعتبر أن كلماتي ضرورية، بأنها ما تزال ممكنة بعد. وجدت السبب في أنني منذ بداية منسية امتشقت سيف الوهم، وبه خضتُ أعتى المعارك، ولذا فحياتي مستمرة بقوة التذكر، والحنين الذي لا يمتلكه إلا الراسخون في الحب والامتلاء بالحياة. فأصر، مثلًا، أن أمتي لن تموت وستبقى ما دام هناك واحد فقط يتلعثم بالأبجدية، حتى ولو صار «غريب الوجه واليد واللسان» في عقر داره[١].

٢

لا شك أني عنيد، ولم أتعلم أي درس من حياة العرب المحدثين، أي ما جره الدهر أو جروه على أنفسهم من ويل وثبور وهوان، فصاروا لا نخالة ولا حب زؤان، حكامهم، شعوبهم، مفكروهم وكتابهم كأنما لا حس ولا كرامة، وعدا النهم والنهب والسفلة، ليسوا من الزمان. لا بد أني أصم فلم أسمع المنادي لما طاف يطلب ممن تبقَّى من عرب الأمس أن يبادروا إلى دفن أجداثهم قبل أن يأكلهم بعضهم، ويغصب باقي عرضهم وأرضهم وقرآنهم، وينتظرون أن يغضب الله نيابة عمن كانوا من نسل بني تميم أبدًا غضابًا.

---

[١] كُتب إثر الهجوم الإسرائيلي على قطاع غزة في نهاية دجنبر ٢٠٠٨م

٣

غير أني أمقت التنازل لقدر لم أصنعه، كذا الاستسلام لما جناه علينا الجبناء وأولاد السُّخرة، فالأرض بيضاوية دائمة الدوران، لكي تتخفف ممن هم بلا جاذبية وبجسوم وعقول جوف. ونحن في هذا البلد دأبنا ألا نخون الأرض، يصاعد البنيان، يطغى معه الإنسان، لكم تجبروا علينا ويتجبرون، من مهدهم، وفي آخر المطاف تطوي لحودهم وأدرانهم، ما أكبرها وأقواها أمنا الأرض. لا تهون إلا على من كبروا عبيدًا، لا يستحقون هوى الأوطان.

٤

ما يجري الآن، هو كدمنا ظل يجري، صار ماء وظلت بقية من نطفة دم ما تنفك تجري.

والقتلة وجوههم بيضاء كالشمع، ناصعة كالثلج، لا حياء، لا ريبة، بدم بارد في الشرايين يجري.

من كثرة ما ساح هذا القاني ما عدنا نعرف أمن غيم يجري هو أم من ضيم، أم من ضروع سماء كم تطلعت إليها الأكف، كم تضرعت إليها من ثكلى ومن أيم، فتوجعت وتفجعت، ولم تعد أين تسأل تولي وجهها، ولا سحبها المدرار تمطر إلا بهذا المهراق حولنا أبدًا يجري.

٥

لا نحتاج إلى مناسبة كي نغزل دمنا المستباح ونصبه في وادي البوار؛ هي غزة مثلًا، أو طعنة عبرت إلى صدر عمر بن جلون صارت عند قوم نخب ليال ملاح. وما غزة إلا من غُزية تستفيق إذا هاجت بالكبرياء، لن يبيدها طوفان قصف ولا سمسرة الأوصياء. غزة من بدء الخليقة قربة دم وقربان. قربان لوطن مغصوب يتوارثه الشهداء، ولا هي تحتاج إلى كلماتي، إنما ما حيلتي وقد عاث البغاة، صدئ النصل في الغمد، وعز كل سلاح!

٦

لذا لن نتجمع اليوم، كأمس حول جثتنا، نتشممها تتعفن بعد إذ تفسخنا زمنًا، وغدت أوطاننا دمَنًا، تكالب عليها النعيب، تداولنا النديب، يشيخ أطفالنا قبل أن يولدوا، أو ليسوا

في الأرحام يوءدون، والآباء إثرهم يصلبون، أما الموت فلا ينسى إلا التعساء، أما غزة فهي تكرع من دمها الرقراق، صبوحها وغبوقها موت إلى يوم يبعثون، وربها واحد قادر على بعث الشهداء.

٧

هو وأنا، معًا سمعنا الحيزبون اليهودية تقيء ملء شدقيها: «لن تقر لي عين حتى تقتلوا كل العرب!» تخاطب جند اليهود، والجندي العربي في كمد، هي كانت تعنينا لا السادة الجرب، وطبعًا هذا القتل لا يعني إلا العرب، من العربي فيكم أيها الساسة، أيها الدهاة، أيها الشعراء والكتَّاب والكذبة؟ أم العربي اليوم فقط، مجرد وجهة نظر! اللاهثون وراء سادة الريع، عبيد الطلب، أنا أعرف عدوي جيدًا، وحق الله لن أسلم له، وحقي سيبقى هو المراد وهو الأرب.

الجزء الرابع

مناقب الأحبة

منقبة الشيخ:
وشي على سيرة إدمون عمران المليح

هناك ما يغري دائما في الكتابة، ويكون مبعث ريبة؛ لأنها لا تتحقق فعلًا إلا بدافع توريط، ولتتحول بعد انفضاض القراء عن نصها إلى ورطة. ورطة في عالم سحري ومركب في آن، اسمه الكتابة دائمًا.

لم يكن هذا النص ليوجد لولا ضيافة الجمعية المغربية للدراسات المغاربية والمقارنة، هي التي نصبت لي الورطة الأولى. فيما الثانية منحاها أطول، تركبت من حضوري منذ وقت وخيوطها أعقد، ما دامت قد ترتبت عن حضوري منذ وقت طويل في محراب المحبة والألفة، وبعدها الإفادة والمتعة من الأديب اللوذعي، الكاتب النحرير، والمغربي المخلص لتاريخ وكفاح ومبادئ أمته الشيخ إدمون عمران المليح، أطال الله في عمره، وأمدنا بمزيد من قبسات نوره وفيض خاطره، يتجددان في الحلقة الدراسية المنعقدة اليوم بالمعهد الجامعي للبحث العلمي؛ حيث سيتولى مريدو الشيخ ذكر مناقبه، والغوص في بحر سريرته والنهل من علمه وأدبه لاستخراج ما فيها من درر، والتيمن بهاتيك الغرر ... فكان لنا في ذلك المجلس هذا الذكر، في يوم أمر الله فيه بالسقيا، هطل فيه المطر مدرارًا بعد صيف عطش طويل، والله يرزق من عباده من يشاء.

لا تعجبوا أن مطلع هذا النهار ماء.
لا تعجبوا.
إن روح هذا الرجل — شيخنا — رواء.
والرواء ساقية وسقيا،
والسقيا سبيل،

بل سلسبيل. تسلم اللسان إلى الشفاه،
الشفاه مشافهة هو يحبها،
يحب الكلم الطليق، سلسًا كالهواء.

أما الكتابة فهي، نوعا مًا، سجن الكلمات، لما تمور به الذات. لكن لا مناص؛ لذا سأتخفف من هذا القيد مداورة، مجيلًا كلامي في بستان الكلام، أدير الطرف في عيون الأنام، ومنهم إلى مدار الاستفهام، من يدري فلعله يسعف في هذا المقام:

كان ابن خلدون — بحكم معتقداته، مذهبيته، ومنحى زمانه — يبحث في الكتابة عن جلب المنفعة، درءًا للمفاسد. أما أنا فعلاقتي بزماني، والحق أقول، بكل الأزمنة، ما سبق، ما أنا فيه، وما لن أمتد إليه؛ فإني لا أبغي سوى شيء واحد، هو تبديد أي وهم بمنفعة الكتابة، وبالحاجة المطلوبة أو المبتغاة زعمًا من ورائها.

يعود ذلك إلى سبب بسيط، هو أنني لا أعرف بدقة لا ما هي الكتابة، ولا من هو الكاتب. ولا أكف أستغرب كيف لا يضجر عدد من الصحفيين المضجرين، ومن يواليهم من «الكتاب» المعقمين، من طرح أسئلة حول المفاهيم والمعاني المفترضة للكتابة ولدور الكاتب، وما إلى هذا من أسئلة ينشغل بها بعض وبعض لأسباب شتى، وأخرى لا طائل من ذكرها.

يا لضياع العمر كيف قضيت العمر أيها الشيخ المليح ... كيف أمضيت عمري ... فلا نلنا المنى ولا عرفنا أين تقع الذروات التي صنعنا وأسلسنا الجبال للغفلين كي تسنموها، ونحن ننظر إليها ونضحك، بل نقهقه، ذلك أننا كنا، ثم صرنا، منذ البدء منال المنى، ثم منذئذٍ نذخر الماء ونصنع الموج من أجل أن ينتشر البحر، وأن تفيض الكتابة، آه، عساها تشرح خاطر اليابسة: «ألم نشرح لك صدرك ...»

وحدتي الآن هائلة.
هائلة هي وحدتي.
فهل تصلح لي حقًّا؟
وهل تصلح لي مكانًا للإقامة؟
أم هي لي وبعدي،
نذر ووعد بالقيامة؟
أمشي، وأمشي، الفراغ لي ظل وصراط.

لم أكن قد ضربت أي موعد معها،
— أعني وحدتي —
فهي دومًا بانتظاري حيث تراني.
أراه، ألتمس الطريق إلى ذراها.

شاسعة خطاه.
له البداية والولاية وشعاع المنتهى.
ستكلمه، ستدثره،
دائمًا هي وحدتي.
أراهما معًا يمضيان صوب المتاه.

* * *

أريد.
أريد أن. لا كما يعبث النزقون بالكلمات،
هنا، هناك، تتدلى عنقود هراء.
لا أعرف بالضبط كيف أصنع قول إرادتي،
لا أعلم كيف له أن يتشكل.
هيهات لي. كيف أرسله.
ها أنا ذا أمامي قول.
شاخصًا يواجهني القول، يصافحني.
قول آخر ينبع مني، دومًا يتقدمني.
ومثل نبع فوار يتضاعف متكاثرًا بي.

أدعه يختلط بحركاتي وسكناتي. سيد في يقظتي وهو لا يكف يستدرجني إلى وسن حالم. غاوٍ وكذوب، فألمحه، القول، يتلألأ، ويتراقص، ولا أقبض إلا على نثار زبد Les embruns.

هو الذي لم يقبض في الحقيقة إلا على لسانه، ولا أحكم سنن الغواية له. يقولون خطلًا إنه بلغ مدرك الكتابة متأخرًا، وهو، طبعًا، كلام اعتباطي، محكوم بأعمار البشر العادية، لكن لا أحد راقب ولا ترصد للمسير السري في الليالي الخفية، ولا كابد ألق النجوم أو ماس في سمت الأطياف، تلك التي أحاطت الشيخ المليح بهالتها.

هو الذي اختار أن يترك جسده يمشي بين الناس في المدن المألوفة، والأحياء المغمورة، والمسالك المطروقة، حتى صدق الناس بالفطرة أنه أهل مثلهم، واحد منهم طرًّا، مطلقًا. أوَليس ينام، يستيقظ، يحادث الجيران والأصفياء، يهيئ طويجنات لا ألذ ... يعلم التلاميذ، يحب الوطن، يناضل من أجل مثال ... يتخلى عن بعضه ويفضل أن يتوارى، ويهاجر من أجل مثال، أيضًا.

لكن الجسد الآخر، ذا الشكل الهيولى، القادم من خارج، المتورم بنتوءات الخرائط المهشمة، المفخخ بألغام ذاكرة وثابة، المقرح بأشجان الوقت من داخل — والحزن أبدًا غدير في الروح يسري، آه! — كان قد اختار صاحبه كليمًا إلى نفسه، يلتقط منه ذبذبات الوجود المتصاعدة، واندثارات الفناء المتعاقبة، مؤلفًا بينها، بكلمات منكفئة، أي الجذور والأعماق سماؤها؛ مؤلفًا موسيقى لا يسمعها إلا من أدمن الصمت الهادر لعالم مضى، من حيث هو قادم.

لذلك لم أمل لقول العامة والعادة: إن الرجل جاء إلى الكتابة أو طرقت بابه متأخرًا. يقيني أن الرجل كتب بدأب، بصمت المتأمل لا بثرثرة متحذلقين لم يسعفهم «تقدمهم» في الكتابة دائمًا. أما هو فيظهر متخوفًا، القلق ديدنه، لا جبنًا أو عجزًا، متقدمًا كثيرًا عن من سبقوه، ولم يدركوا تخوم الكتابة مثله. ومن علٍ يطل على نفسه لا عليهم. تطل الرواية من عرين كمونها الطويل، على تاريخ جنس أدبي لتجنسه. كأنما تفصح عن أبجديتها الأولى، وعلى وجدان جماعي يتسلسل في عذوبة وشجن ومن سريرة. فما إن يحاول التماهي أو الإقامة حتى نراه قد تشظى في السيرورة الوجودية والتاريخية لشعب هو منه فما يلبث أن يغربه ... لغة تجري في دمه ولا يقولها ... ولمصير يتبدد أو تأرجح بين مصائر.

أما على صعيد كتابتك الخالصة فلا حرج أكبر من من الحديث عن تجربة المليح في الرواية والسيرة الذاتية، لو صح تسميتهما حسب المألوف، بتجزئتهما من كتاب إلى آخر، وبإخضاعهما لأي تصنيف حسب الطلب والسند. وهي على الأغلب سيرة كتابة متصلة، متواشجة، ومتصارعة، متشظية في آن. ولقد تبدى لي بعد طول تدبر ومكابدة، وبكامل تواضع المؤمن بما يفعل، حد الزهد عنه، أن أعظم كتاب ممكن إبداعه أو نسجه على الأصح متقدم على صاحبه في شكل سيرة الغياب، فتراه يلاحقه ويواجده فلا يطوله إلا في وهم كتابته المنفلتة منه، تروم كمالها في خوف صاحبها من فنائه وهوسه إلى استمرار اكتماله، ذاتًا ووجودًا وافتتانًا إلى ما لا نهاية، فأي عذاب هذا، وأي وهم جميل مهما يكن الأمر.

ولعمري، فانخراطك في هذا المعنى، إحساسك الدائم برهبة الكلام، بإعجاز القول حد ندرته المعجزة والرسولية، ليجعلني قريبًا منك أكاد أراني في بلور روحك، أسمعني في خرير ضحكتك، أكاد تنوب عن توأمة سرية وهبها المجاز نيابة بدوره عن الطبيعة.

وبعد، يا صديقي، وشقيق روحي، فقد علمتنا لغتنا وثقافتنا العربية أن البلاغة هي أن يطابق الكلام مقتضى الحال، وأن كلام العرب واسع، وأن لكل مقام مقالًا يختص به بعد كمال الإعراب والإبانة ... وها أنا ذا في حضرتك أيها الشيخ المهيب أحس برعشة في قلبي، بعد ارتعاش يدي، وبلساني ارتد إلى جوفي، ووالله ما هو عيٌّ ولا عياء، ولكن ...

لكنها وحدتي الآن هائلة،
ربما لا يضاهيها سوى قامة إدمون الهائلة.

حجاب المحجوب[1]

تكاثر حولي الموت؛
الأصدقاء، الأعدقاء، الشهداء، وأنا؛ أتكاثر.

تكاثر في جسدي الموتى:
الأموات، طبعًا، والموتى ما زالوا أحياء؛
والأحياء الموتى؛ والقائمة تطول.
من حيثما تناسلت الحروف، أو تدافعت الكلمات،
أراهم أمامي، بين قيام وقعود.
كأنهم في صلاة، وما هم إلا بعد وهم حياة،
يتمرنون على حتم الممات.

كثير على عيني، على قلبي كل هذا الفناء.
في أيما نهر سبحت، أو جدفت تجرفني الدماء.
شرس حضورها الفقد، ذابل طلع النهار،
موحش، صاعق ومفترس عند المساء.

[1] هو المحجوب الصفريوي الأديب والصحفي المغربي، عمل طوال ستينيات القرن العشرين، وإلى أن تقاعد في نهاية القرن، محررًا بجريدة «العلم» المغربية لسان حزب الاستقلال، وكان مشرفًا فترة طويلة على صفحة خاصة بناشئة الأدب، بعنوان «أصوات» وله أيادٍ بيضاء على ظهور وتفتح كثير من المواهب والأقلام، وافته المنية — رحمه الله — في يناير ٢٠٠٦م.

تشاسعت مساحة القتل، تكالب علينا الفجار،
سيخرجون اللحود غدًا، يدنسون قبور الأنبياء.

أمر أمام مقبرة الشهداء.

في رباط الفتح، كانت أمس. لا بشر حول شاهدتك. لا طير يا محجوب يحوم. لا شعر، لا نثر كنت سيده، وها هو يقتات اليوم في «السويقة» من طنين الكلام، أو سلعة يتداولها بلا خفر ولا استحياء قطيع لئام. نظرتُ إلى البحر على امتداد رشقتك المزبدة، أبدًا من غضب: كيف نمضي ويبقى بعدنا كل أولئك النذلة؟! كيف لا تتوجع الأرض بعد إذ غادرها الرجال المردة، كيف؟!

تعودت حين يفرغ جوفي أن أحيط يدي بخاصرة الرباط، كآخر غانية ستراقصني في حلبة الوهم الأخير، قبل أن نشرب كأس المنون. أناجيها وتناغيني، تسعفني بالوصل في غربة العمر، بالظل في حر الهجير. أمس طوفت البلاد أبحث عنها طولًا فعرضًا، زحفت إليها كالأسير. بعد سير. بعد لأيٍ أخبرني الغداة والشراة أن لم يبقَ من رباطي غير خط سراب، يلوح المحجوب فيه على طرف السحاب، ممتطيًا صهوة حب كان لنا في زمن العباب، ويحي، أوَبت في الحد الأخير!

لم يتألم. لم يتظلم، لم ينبس ببنت أنَّة. رأى الوقت يمضي مثل مجرى نهر ضرير، أو كنوم قرير، فتابع الخطو لا يلوي على شيء، بلى ليلوي إلى بيت هو آخر ما في الضفاف، فيه قليل قوت، وبضع حروف يكتبها لنقرأها بلذة التوت، وفي آخر المد والأرض خلاء، وكل مكر الزمن الهباء، يعود ليمضي وحده نحو تلك الشغاف.

لم أكن أعرف قبله أن المدن يغطيها وشاح، حتى الضوء يعميه فيه انفساح، وما الأحزان والأفراح؟ أوَليست غير جوقة للعويل، وصدًى في مهب الرياح؟!

لم أكن أحسب أن الهواء خافت تحت وطء السماء، والنظرة هي القصوى عنده دائمًا الأحفل بالمعنى، أطرب بالمغنى، أطيب في المجنى، من شفيف الضياء.

لم نعلم إلا منه أن أقوى ما في المرء، أبلغ ما للقول، وأبهى ما للسحر، الخفاء. وقارٌ ما لا يدركه إلا الفضلاء. إن نظرت إليه وهو يذكو برقيق السلام، ارتدت إليك حياء من حياء. حينًا آخر تلمحه عابرًا، تحسبه مقبلًا أو مدبرًا، إنما هو لصق الجدار. واثق الخطوة، طبعًا، شأن كل الكبار. مفسحًا للصغار الطريق، أوه، إلى مجدهم والخيلاء!

لذا كان يمشي في الممرات الخفية، وحدها تسعفه بالقرب من الله، وابتغاء عطاء الأبدية. لذلك لم يتبدل، ما غيَّر الجلد ولا خلع كسوة «العلم». حتى بعد انفضاض العشرة

وهجر الإخوة، ثم قلة ذات اليد، وأفول آمال في مغيب البدد، وحتى بعد أن حنت الناس سرًّا وجهرًا بـ «أقسم بهذا البلد» ظل هو غريدًا على فنن الحرية.

أمس وصلت إليك، أي قبل أربعين خلت، غريب الوجه واللسان، ففتحت الثغر لي. باب جريدة «العلم» يسبقك: «حللت أهلًا، ونزلت سهلًا في دار الوطنية.» وتركتني، من غير أن تسهو، بالكلمات ألهو. ولما رأيت بعض العود يشتد، والقامة مني تمتد. أشرت امضِ الآن في دربك. إنما، حذار أن تزهو، وتذكر أن الحرف مداد وجهاد، وتدرك طبعًا أنه نخوتنا العربية.

واليوم تمضي عني، لأبقى بعدك أغرب. أي درب سيدلني على الطريق المحجوب. لا سماء تضيء. لا هواء في الرئتين. لا شفيع. لا دليل في أرض الضلال. لا حب. لا شعر، لا نثر لوجه الله. لا خل، ولا ظل، ولا طل؛ كل شيء بمقابل، أو كان أمس وصار إلى عدم. فأرسلت الطرف إلى آخر الدرب، قررت باكرًا سأرحل، فهذا أفضل. عدت همست ما هذا الأ ... رى، ما كل هذا الم ... حال؟!

يا صديقي الصدوق. يا معلم. قلت عين المقال، ولذا أعرني حجابك، علني أغدو أطول سماءك. كفى، تكاثر فيَّ الموت، فإلى أين المآل؟!

في تذكر من فتح لنا الطريق

من غير عبده؛ من سواه؟!

لا أعرف كيف ولا بأي زمنية سأكتب عنه: بمن كان، أم بما هو كائن، أم الأفضل أن أجنح إلى تركيب يخرجه من تصنيف الوقت الفيزيائي، ليدخله في الديمومة، لا سيما وأنا، ربما لست وحدي من يفعل، ليس من عادتي أن أفكر فيمن أعز وأبجل بتوقيت حضورهم الجسدي؛ صنيع علاقتي بأمي، مثلًا، حين رفضت أن يشيحوا الغطاء عن وجهها لألقي عليها نظرة الوداع، يسمونها النظرة الأخيرة، كلا، تركتها تمضي في موتها، الموت الحتمي المعلوم بنهاية وظيفة الأعضاء، ولما وُوريت التراب كنت مصممًا على إبقائها معي، عندي، في بقعة من داخلي، ما هم سواء هي قلبي أو ذاكرتي، أو بينهما، المهم أنها حية بعنادي، وأقول إنها وأنا لا أراها رؤية العين المجردة، إنما غابت، سافرت إلى مكانٍ ما، وسيحين موعد عودتها لأراها من جديد، كأننا لم نفترق لحظة واحدة؛ لقد انتصرت على الزمن بسحر الديمومة!

لذا أكرر أني لا أعرف حقًّا كيف، ولا بأي صيغة سأكتب عنه؛ حسب الظروف القديمة، البعيدة الآن يوم أتيح لي أن أتعرف عليه، أم وفق ما صار وما بت عليه، وقد دار الزمن من نهاية الستينيات الخالية إلى نهاية عَشريتنا الحالية لهذا القرن أيما دورة، تشيب لها الولدان، تغيرت معها الأحوال، وتداخلت الأشكال، وما أكثر من وما تبدل، ولله عاقبة الأمور. لا أبحث عن جواب بقدر ما أسجل حيرة تكبلني، وقد منعتني وقتًا من الاقتراب من هذه السطور إلى أن وجدتني فيها، ولا مناص لي من المضي ما دمت بدأت، أتذكر أني بجزء من حدبه، وكثير من عنايته ورفقته، قريبة وبعيدة بدأت، ولذا عليَّ أن

أواصل، والحيرة الممضة دائمًا تكبلني، خاصة إذ أتلفت، يشغلني غيابه من شدة حضوره بداخلي وبقربي، فأناديه، ألوح له، وخلافًا لعادته، لحبوره الأليف، وظله الرفيف، ومجلسه اللطيف، وقوله المهموس أحيانًا كالحفيف، لا أسمعه يلبي أو يجيب، فيشتد افتقادي، هو الذي كان خطوي وظلي، بعض صوتي وغمد سيفي، وقبل هذا وذاك جمال بداية العمر الجميل، أيام الضنك والحلم والحب والشعر وكل ذاك ما غدا الوهم المحال.

ولكن ما بالي أنتهج هذه الكتابة وكأني أدون عن نفسي، أتحدث عمن أمعن في تغييب اسمه، واسمي يبدو حاضرًا، موقَّعًا أعلاه على حساب هذا الغياب؟! أي لعبة هذه التي نسرف فيها حين ننهب حياة الآخرين، نتوسل بسيرهم، أحيانًا، ولو بحسن نية، ونبل القصد، نتخذهم ذريعة فنظهر في الأخير بصورنا ملمعة، لننساهم في الطريق مستسلمين بغباء، بخفة، لنرجسياتنا، سواء في المدائح أو المراثي، في البغضاء أو الثناء، نكون إما أعددنا ولائم لا لضيوفنا، إنما لتسمن لحومنا، ولنسمع بعدها صدى إكرامنا. وإذ نزعم أننا نريد أن نتذكر، ونسرد شيم وخصال الرجال، نمعن في النسيان، ولا نتذكر إلا ما يسعف لرسم صورتنا نحن، الذين لو كنا صادقين، أوفياء، ما وجدنا اليوم، لن يتحدث أحد عنا غدًا إلا لأن هؤلاء الرجال بالذات هم من فتحوا لنا الطريق، ووضعوا على ألسنتنا أبجدية ونبرة الكلام. وإذ يخفت صوتهم، أو يتباعد ظلهم، أو تنسحب خطوتهم إلى الوراء، نحن الذين نتوهم أن خطوتنا على الأصح في خط الأمام، تشخص لنا قاماتهم ووجوههم — ينبغي أن يحدث هذا على هذه الشاكلة، وإلا فإننا أنذال ولئام — في مرآة الغياب، تُسائلنا، تناجينا، وتمتحن فينا ذاكرة ما كان وما لا ينبغي أن يطويه النسيان، أو تمتد له، كما في هذه الأيام البيد، يد العبث والبهتان! إنما لا مناص من أن يختلط ظلك بقامات الآخرين الكبار، فالظلال هي المصائر والطرقات تتقاطع، وهي سنة الحياة، التي نرجو أن تشفع لنا طباعها، فتغضي عن الصغير في طباع البشر.

وأنا عرفت الرجل، قصدي عبد الجبار السحيمي، منذ نهايات العقد الستيني للقرن الماضي، طبعًا، الأرجح سنة ١٩٦٩م، بمدينة الرباط، وبمقر جريدة «العلم» أغلب الظن. فإني كنت سنتها قد تخرجت من كلية الآداب، وعُينت مدرسًا بالدار البيضاء، لكن بعض صحبي وزملائي عُينوا، ونحن خريجو المدرسة العليا للأساتذة، بالعاصمة، ولي معهم ألفة ومودة منذ زمن الدراسة في فاس، فصرت أنتقل إليهم إما للتسلية أو لتطارح الرأي في شئون زماننا، عديدة وقتها ومتداخلة. وبما أننا جميعًا، تقريبًا، كنا نناوش القلم، ونحلم بالكتابة بين تطلعات أخرى؛ فإن هذا الحلم أخذنا بالضرورة إلى سمائه، بل إلى مثواه

وسمائه حيث يأوي ويحلق في جريدة العلم، الأولى والوحيدة آنئذٍ تنقل الصوت الوطني، السياسي والثقافي معًا، وغيرها حُكِم عليه بالاختناق (جريدتا «التحرير» و«الرأي العام» الموالیتان للاتحاد الوطني للقوات الشعبية، وحزب الشورى والاستقلال). صرت أطرق مقر هذه الجريدة حاملًا بيدي بعض ما أتصوره أدبًا أو إنشاء أدب، أضعه في البداية في رعاية الصحفي والأديب المحجوب الصفريوي، الذي كان — رحمه الله — يتعهده جيدًا، هو المسئول عن كتابات الناشئين. والحق أني أثناء الزيارة كنت أتلصص على من في المؤسسة، لا سيما من أسمع وأقرأ لهم من أعلامها، في مقدمهم الأستاذ عبد الكريم غلاب، ومحمد العربي المساري، وعبد المجيد بن جلون، وعبد الجبار السحيمي، صاحب الأوراق الانطباعية والمذكرات الرقيقة. كان مكتب عبد الجبار (سنسميه خلصاؤه فيما بعد عبده ألفة وتحببًا) إلى جانب مكتب الصفريوي، وأظن أنه كان معنيًّا بشئون شتى في الجريدة، من بينها ملحق قلم التحرير، والصفحة الأخيرة للمنوعات، وبعض ملحق «العلم الثقافي» الذي لم يكن يُعلى عليه، والمدرسة التي تخرج منها كل من يدب من أدباء العربية اليوم في المغرب الأقصى. أما أنا فعرفت، ولبعض الوقت، الصديق والسند، الصحفي المبرز مصطفى اليزناسني، مسئولًا عن هذا الملحق، وهو من نشر لي أول نصوصي فيه، فكان ذلك، ولا فخر، بمعيار تلك الأيام، بمثابة شهادة ميلاد كاتب.

الحاصل أن نظري، بين هذا وذاك، لم يتوقف عن التلصص إلى حيث يوجد عبده، ولم يكن لي وقت طويل أمضيه في تعقب خطوه ومكانه، ولا هو في زحام عمله لينتبه للمتوددين والفضوليين، على بساطة طبعه وطيبته، ودماثة رباطية متأصلة، لن أتعرف عليها إلا بعد دهر، حين ستقدر لي الإقامة زمنًا بالرباط ابتداءً من سنة ١٩٩٥م، في عودة مؤقتة من باريس.

ذلك أني في ذلك الزمن كنت أديم التنقل بين الدار البيضاء والعاصمة، نهاري هناك وليلي هنا، وفي هذا الليل كم عرفت الرجل، وتنسمت أريج لفظه، وعذب حديثه، وشقشقة ضحكه، وخاصة رقته، أقصد رومانسيته اللانهائية، لا سيما إذا وصل الكلام إلى الأدب، والفن، في قلبه الغناء والمغنون، أحبهم على نفسه شجن وآهات عبد الحليم حافظ، لا أحسب أحدًا برَّح به هواه مثله، هو الذي كان يشجو معه بصوته الفخم الذبيح: «جبار، في قسوته جبار! في رقته جبار!» وما عرفت عبده بين صحوي ومنامي، غدوي ورواحي، بين استقباله لي في الجريدة، أو ضيافاته الكريمة لشلَّتنا في بيته العامر قرب مقهى Jour et Nuit، أو جلسات سمر ليلي في حي المحيط بالمطعم الصيني، قبل فساد الأمكنة، وتلف البشر، وزوال الأثر؛ أقول ما عرفته إلا رقيقًا، وما زال.

والحق أن هناك تاريخين وثَّقا علاقتي بالرجل، ليجعلا من وجوده في الرباط، وفي موقعه الإعلامي أولًا، ثم الشخصي، الأدبي والإنساني، ثانيًا — وهما عمليًّا يتداخلان لأن عبده من قلة لحمتها وسداها ذاتٌ متآلفة بعضها مع بعض، هي نسيج وحدها — سينضاف لهما تاريخ ثالث، أحبه وأمقته في آن، قد يتأتى عرضه. أما الأول، فهو ارتباطي منذ نهاية الستينيات بجماعة «أنفاس» الإبداعية، أكرر الإبداعية، التي جمعت شعراء وكتابًا وتشكيليين، ذوي مشارب ثقافية وفنية مختلفة، ولم يكن إلا الإحساس بآصرة التحديث، والتعبير بصوت مختلف هو الهاجس أو الجامع المشترك بين أعضائها، ولا كان لها زعيم إلا من ينسق مجلتها بالاسم ذاته، وهذا كل ما في الأمر، قبل أن تغير خطها إلى منهاج سياسي، ويتفرق شملها حسب حوادث الدهر المعلومة. المهم أني طفقت ألتقي عبده وأنا أزور جماعتي الحداثية في الرباط، ومن قريب أو بعيد كان عبده فردًا بيننا، على الرغم من موقعه، أو موقع جريدته المناقض لخط جماعتنا في الظاهر، كثيرًا ما سهرنا، وتناجينا، وبالنسبة إليَّ فهو أكبر سنًّا وتجربة، وأنضج ذوقًا، وأرهف إحساسًا بالحياة وقدرة على التلقي الأدبي والفكري، فضلًا عن السياسي، وهذا شأن آخر. لذا أحب أن أعلن هنا أني لا أتحدث، بعد أن جرت مياه غزيرة تحت الجسور، كندٍّ له، وأنى لي ذلك؟ حسبي أن حظيت بالتعرف عليه مبكرًا، واكتساب صداقته، ونيل تقديره لما أكتب، ليجعل مني — على طراوة العمر وفتوة التجربة — واحدًا من أقلام العلم، الثقافي خاصة، قبل أن يصبح لقلمي منبره الذي، من أسف، سيعارض منبره، ويناقض مواقفه، وتلك صورة من تاريخنا المشترك. لكن هذا الجيل على صراعاته، واختلافه، وأحيانًا سجالاته النارية لم يعادِ بعضه، وعرف كباره، أفذاذه، منهم عبده بيننا كيف يحفظ الود ويصون عهده، يشهد الله على ما أعلم أنه ما شتم ولا تنابز في أحلك الصراعات وأعتاها بين فصائل الوطنية والمعارك الثقافية الضارية داخل منبر اتحاد كتاب المغرب، وفي صفحات العلم الغراء، التي نحتاج دائمًا إلى ترداد أنها مدرسة الوطنية الأولى والراسخة، وفيما سواه يحقد ويكيد، ظل هو يبذل الكرم والسماح والود يزيد. فلقد عرف كيف يعطي لـ «العلم» إهاب الجريدة الوطنية بمعناها الشامل لا بكونها لسان حزب الاستقلال، المقيد بالتزامات أو أعراف سياسية، أيديولوجية مقننة أو ظرفية، ولماذا لا أقول إنه وهو الذي التحق للعمل بها، قبل أن تتضارب اتجاهات القيادة السياسية الاستقلالية، ويحدث الانشقاق الاتحادي الشهير نهاية ١٩٥٩م، حرص من موقعه، وعمل فيما بعد بأسلوبه لأن يجذب لمنبره كل الحساسيات، ويحوله إلى مرجل ومختبر لتيارات التحديث والتجديد، من كل لون، وليس

إلا في العلم ظهرت نصوص التجديد الأدبي شعرًا وقصًّا ونقدًا، إضافة إلى ألوان التشكيل المتطور، وحساسيات اليسار المتياسر، أيضًا، ما يحتاج إلى توثيق وإعادة اعتراف، أقواه الاعتراف بأن عبد الجبار السحيمي هو رجل وموهبة ومسار تدفق هذه الروافد كلها، وفي مجرى جهوده، أيضًا، كان المغرب والمشرق يلتقيان في تحابٍّ عميق، وتعاون وثيق؛ إذ كل من يقصد مغربنا يدق بابه/باب العلَم، كم من الأعلام سأذكر لو أردت، استطعت، ولا أستطيع. في الداخل والخارج، وفي أتون الصراعات لا دلال وكسل وهراء الكلمات، عرف جيل كيف يوجد، ويمضي قدمًا وهو يؤسس، ويشيد، ويجدد، ويتعارك أيضًا، لكن بما لا يفسد للود قضية، هذا غيض من فيض ما تعلمناه من عبده، ولذلك يصح أن يُعَد من المعلمين الأوائل والجديرين لهذا الجيل، جيلي، أبقاه الله.

التاريخ الثاني متعالق بالأول، قرين بالكتابة وموقف الكتَّاب من دورهم في المجتمع والوضع السياسي لبلادهم، ضمن مؤسستهم اتحاد كتَّاب المغرب التي خاضت سنة ١٩٧٣م معركة من أشرس ما عرفته في تاريخها، ونجمت عنها مواقف حاسمة، عقب المؤتمر الشهير لمدارس محمد الخامس بالرباط، ذاك الذي تواجهت فيه مختلف فصائل الكتاب الوطنيين والتقدميين — هذه تسمية المرحلة — مع من سميناهم الجناح الرجعي، الموالي للسلطة، الذي كان جله يتحرك في فلك وبدعم من القصر الملكي. وقد أسفرت هذه المواجهة عن انتصار الفئة الأولى، وانتُخب الأستاذ عبد الكريم غلاب رئيسًا للاتحاد خلفًا للمرحوم محمد عزيز لحبابي، وتشكل مكتب مركزي من بين أعضائه عبد الجبار السحيمي، وكاتب هذه السطور. وطيلة أربع سنوات من عمر هذا المكتب توثقت صلتي بالرجل، وكان المغرب يجتاز ظروفًا سياسية صعبة، وصفُّ المعارضة التقدمية يتلقى الضربات من قمع وإسكات حرية، والجامعة في غليان، وليس للأدباء غير العلم تقريبًا منبرًا، فـ «المحرر» الأسبوعي ما كان ليشفي الغليل، ولا بعض الدوريات المتقطعة. لم نكن في اتحاد الكتاب، بالتبعية، قادرين على فعل هام لأسباب يطول شرحها، إنما بقينا نتواصل، وعبده الكاتب العام للجمعية، يحاول أن يمسك العصا من الوسط إزاء أعضاء متشنجين مثل الراحل أحمد المجاطي، محمد بنيس، وأنا أيضًا. بينما هو هادئ الطبع دائمًا، يغضي حياءً من مهابة الرئيس غلاب، ومديره في «العلم» وإذا غضب أضمر، حرص دائمًا على ألا يختلط عنده الموقف السياسي، أو الثقافي السياسي، مع العلاقة الشخصية، أعني الصداقة، ولا صلة النشر في الجريدة، فهو عرف كيف يدبر بميزانٍ هذه الصلات، لذلك كسب احترام وود الصادقين، ولم يغتر بتكالب الانتهازيين وعديمي الموهبة، بين منبرَي الاتحاد والجريدة، فصار له خصوم ولكن أبدًا بلا أعداء.

لم نكن على وفاق في اتحاد كتاب المغرب، واتسعت الشُّقة عندما انطلقت جريدة «المحرر» — وهذا هو التاريخ الثالث، المعكر، عقب المؤتمر الاستثنائي الذي أنجب حزب «الاتحاد الاشتراكي للقوات الشعبية» بالدار البيضاء سنة ١٩٧٥م، وكنت من أعضاء هيئة التحرير الأولى التي شكلها المرحومان عمر بن جلون ومصطفى القرشاوي. أذكر هذا لأن الصحيفة الاتحادية «المحرر» وحزبها، طبعًا، سيتصادمان مع الإخوة في حزب الاستقلال، و«الملحق الثقافي» الذي كنت أشرف عليه مع صفحات أخرى، سيتحول إلى حلبة عراك فكري أيديولوجي بين المفكرين والأدباء «التقدميين» الاتحاديين، وأضرابهم الاستقلاليين «اليمينيين» (محمد زنيبر في مواجهة عبد الكريم غلاب، وأحمد المجاطي (كبور لمطاعي) ضد حسن الطريبق، على سبيل المثال فقط) نار حرب توقد بين الدار البيضاء والرباط، فيما عبده، رغم أنه يجلب الحطب، يبتعد بأصدقائه عن لفح النار، وفي الأيام يدعوهم إلى فيء القلب، وخوان في البيت ممدود أبدًا للإخوان، فلم يتعكر صفو علاقتنا يومًا رغم الهجير، ولا أحسست بأحد قريب مني في الرباط — وإن تباعدنا — مثله، ولا فكرت في اللجوء إلى غيره وقت الشدة. حسبي أن أذكر حادثة واحدة، ونحن معًا أعضاء ذلك المكتب المركزي؛ إذ في سنة ١٩٧٤م، وعقب موجة اعتقالات حصدت مناضلي الاتحاد الوطني للقوات الشعبية، بالبيضاء خاصة، وجدتني، ولم أكن سياسيًّا محترفًا، مساقًا معصوب العينين إلى زنازين الرباط حيث قضيت وقتًا نسيته، ثم أخلي سبيلي في شارعٍ ما من العاصمة وأنا على حال لا مثيل لها من الجوع والبهدلة، ومن حسن الحظ حافظت على ذاكرتي فيما تشوشت ذاكرة آخرين، فاهتديت مباشرة إلى شارع علال بن عبد الله، إلى عبده في «العلم» الذي أطعمني وكساني وهداني إلى السبيل.

والحق أنه معلمة الرباط، ومنارتها بالنسبة للأدباء وكتاب المغرب من كل الأصقاع، بل للعرب جميعًا. أحسب أن حظوته تأتت بعد لطيف شمائله من كونه لم يغالِ يومًا في انتماء، ولا تحصن أو تحجر في موقع، حتى وهو صلب، ثابت العقيدة. لقد كان من السهل، حد النزق، وما يزال، تصنيف الناس إلى انتماءات وولاءات شتى، ومن ثم التعامل معهم وبينهم على هذا الأساس، قبولهم أو نبذهم بحكم مسبق لا دخل للصفة الإنسانية فيه. ولعله من بين نادرين أفلت من هذا الشطط، استطاع رغم حضوره المستمر في جريدة حزب الاستقلال، وفي أروقة هذا الحزب، أن يحافظ لنفسه على مسافة من الموقعين، ويبني شخصية مستقلة، لنقُل متميزة قادرة على الوجود بهذين الوضعين وبدونهما، كوَّنها بعصاميته، وصداقاته الكثيرة المتنوعة، وبمزاج الأديب الفنان، عدا أهوائه الخاصة،

من شرود، وحميمية صوفية، وحب لصيد السمك مع عشق خلوة البحر، تجتمع كلها في ذروة حب جارف للحياة بعواطف جياشة لكم صدح بها من حنجرة العندليب الأسمر، وهو يقلده، يحترق بجوى أغانيه، نحس به، بين الصمت والإنشاد، يغني هوانا وحرقاتنا جميعًا، نحن الذين وُلدنا حالمين في ذلك الزمن الكمد.

وفي الكلمات، وبها، عاش المساحة الوسيعة والوافرة من عمره. كتب، كما عاش وتكوَّن ومارس السياسة والصحافة والحياة على هواه. لم يكتب كثيرًا، لكن غزيرًا بالأحاسيس والمعاني، وخاصة باللغة التي هي لغته، والأسلوب الذي هو أسلوبه، ونبرة هي صنوه، وذا هو الكاتب. كل من يعمد إلى دراسة النثر الحديث في أدب المغرب لن يجدَ بدًّا من الوقوف عند مذكراته في الصفحة الأخيرة في «العلم» وضع لها عناوين عديدة، أشهرها «خواطر طائرة»، لنقُل إنه أستاذ هذه الكتابة اللمحة، واللقطة السانحة، واللفتة النابهة، والشحنة الدافقة، والنفثة الدافئة؛ هو أستاذها في نثرنا بامتياز. جاور المرحوم عبد المجيد بن جلون في كتابة المذكرات، ذاك يطيل ويعقلن، وهو يوجز ويلمح ويرسم مثل أحد معبوديه، نزار قباني، بالكلمات. وانضم إليه المرحوم محمد زفزاف، يطل من قراءات فرنسية، ويصدر عن رؤية وجودية نوعًا ما، رافقه إدريس الخوري بـ «مذكرات تحت الشمس» يعرض أطراف جسده وأجساد الآخرين في الدار البيضاء، وهو يبحث عن لغة تقول كلام الناس لا الأدب، عبد الجبار كان قد جمع هذا الحمل كله، وبعده، ولم يقبل لا أن يتفلسف، ولا أن ينشئ كتابة قدوة، هي في الحقيقة تستعصي على التقليد، وإنما تعبيرًا على السجية، يقول الذات بملء فيه وإحساسه، وهذه خاصية أساس ما أخطرها في بيئة أدبية كثيرًا ما اختزلت الأنا في سطوة المجموع، ولم يحفل القول الأدبي لديها بالفرد إلا إن هو جاء لسان حال الكم الغفل، باسم الواقعية والالتزام ودور الكاتب في المجتمع، وما ينبغي وينبغي، ومثله من إرغام وإسفاف. على امتداد ما يقرب من خمسة عقود تقريبًا، أي منذ مطلع الستينيات، وإلى زمن قريب جدًّا، لم يبرح الرجل قول ذاته، ونثرها بالأسماء والصفات، بالآهات والشطحات، بالكم المجتمع مثلما بالشذرات، بين المحجوب والمرغوب السافر، ودومًا بوقار، كذا بغُنج تلك الكلمات الغانيات، تقول ذاتنا الجريحة بسهام لم يحس بها إلا من نفذت فيه، سهام حقيقية لا هلامية، مدعاة كما يتهيأ لأولاد الأدب هذه الأيام، يغذيها بمشاعر وتباريح العمر الشخصي والوطني والإنساني العام، من غير ادعاء ولا نبوءة، يتنفس من شغافها عشق مبرح، رومانسي، وشهواني، وصوفي، لا يأبه صاحبه أنه ينشره في منبر ذي سُنن محكمة، فهو من ظل يعارك لتجديد هذه السنن، ولأن أحد

الأعمدة الراسخة لهذا المنبر إن لم يكن أرسخها، الزعيم الكبير علال الفاسي، معشوقه المعلَّى، كان أديبًا ومربيًا وقائدًا، وصوفيًّا عاشقًا أيضًا.

لا أدري إن كان عبده مقتنعًا بالقيمة الخصوصية لخاطرته، ومزيتها بين الفنون الأدبية، أرجع الأمر إلى اختلاف صامت بيني وبينه حول رأيه فيما كتبت عن قصصه، المضمومة في مجموعة «الممكن من المستحيل». فإني كنت تناولت بعض هذه القصص في سياق بحث لي لدبلوم الدراسات العليا في الآداب، في موضوع «فن القصة القصيرة بالمغرب؛ في النشأة والتطور والاتجاهات» (دار العودة، بيروت، ١٩٨٢م). أذكر أني ملت إلى اعتبار تلك القصص نصوصًا انطباعية، في شكل لوحات ونفثات تعبيرًا عفو الخاطر، جميلة في ذاتها، وإن افتقدت مقومات البناء القصصي، وما يحتاج إليه هذا الفن عمومًا، مما هو معلوم به ومشتهر عنه. وقد تطيَّر صاحبي من تقويمي معتبرًا إياه تجنيًا، لم يكتب شيئًا من هذا، وإنما وجد الصدى فيما تناقله أكثر من واحد، إما مرجعيًّا أو ليحمي الوطيس. وأنا ما زلت إلى اليوم عند رأيي النقدي، ما أحسب الرجل إلا معي رغم المتزلفين إليه؛ فهو كأنما استنكف عن مواصلة طريق القصة القصيرة إلا قليلًا جدًّا، أحسبه لا يجد وطره فيها، بينما واصل يتحفنا بسانح القول الجميل مما يحتاج إلى تصنيف منظم هو غنًى للمكتبة الأدبية العربية بالمغرب بلا جدال، وسجل حافل بذكريات وومضات عن الزمن المغربي والعربي على امتداد عقود مشحونة. وهو بهذه الكتابات، مثل عديد المواقف الوطنية والثقافية المشهودة له، المنبثقة أصلًا من حميا شخصيته الإنسانية معدنًا، الشاعرية منبعًا، المذوتة بروحية مولعة وعشق بلا حدود، وبحياة مرت كلها في مرافقة الإخلاص، لا قسمة فيه بين الأنا والوطن، بين المغرب وأمة العرب، بين الحي والشهيد، ففيه بعض الشهيد في الحياة، وبمكابدة التفاني والعفة والغنى عن إسراف الدنيا وتهتك وتفسخ ما شهده خلالها من تكاثر القوم وتساقطهم تباعًا؛ إلا الغني عن رب العالمين. إن واحدًا من هذه الطينة، وبهذه الخصال، والسجايا، بالسلوك اليومي له بين عمله وهو يأكل الطعام ويمشي كسائر الناس في الأسواق، خفيف الظل، واثق الخطوة، قليل الجسم، كبير النفس، بوداعة الفجر ونعومة المساء، بكل هذا وما لا تحده كلمات مستعارة من رطب جناه، لمن الأمثلة النادرة والمبجلة لشرف المثقف والصحفي والكاتب والفاعل السياسي في مغربنا الحديث نرى فيه ملامح من صورتنا الكلية، وإن اختلفنا معه في هذا الخط أو ذاك، فلأنه عاش من أجل أن يحفظ للآخرين حقهم في الاختلاف، جاهرًا برفضه للطغيان والاستبداد ودعاة الصوت واللون الواحد، رافضًا أن يكون بوق أحد، أو أن ينزل من السفينة ليتركها تغرق، أو يقاضي ربانها على عمر التجديف وهو يقود أمامنا حلم

الوصول إلى بر الأمان، أحسب في الأخير وليس الآخر، أن ما روَّعه هو ما يجمعه قول سيد الشعراء جدنا أحمد أبي الطيب المتنبي في بيته المأثور:

«مالي أكتم حبًّا قد برى جسدي وتدعي حب سيف الدولة الأم؟!»

باريس في ٢٤/٠٣/٢٠٠٩م

لخاطر الوقت المضيء[1]

١

فلو أن الأرض التفتت إلى جهة من أمس، لفسحت لك مكانًا خارج جغرافيا المكان، واستسلمت طوعًا إلى ناحية الظل بعد أن طال الهجير، تجذبها مرآة ناصعة تتجاذبها بدورها انعكاسات الأعمار وأقاصي الديار، ومنها فيك تتراءى صور ما مضى، مرجعة كالصدى، خارقة بينهما سمع الدهر، مهفهفة الضياء، طليقة كوجهك السمح، لك كل هذا المدى.

٢

فلو أنها استجمعت نفَس الأجيال، شهقت بما عشناه، من كل ما فات، وما نحن فيه من هذا المحال، لعادت تراك كما كنت، وفوق ما صرت، أدنى من فاكهة القطاف، وأسمى من أن تُطال، بينا مواقيت الرجال، على عهدها صاعدة كما هوادج الجبال، أما بقاياهم، أووف، فسدًى وسدًى! لو عادت تفتح عينيها لرأتك، أنت منذ الآن في عينيها، وها نحن وإياك نزهو بجيلنا، لم نبِع ولم نشرِ، ولا شرونا ببخس ولا ثمين، أيُّ بؤس! حتى ولو حاولنا ملكًا لا نبكي على طلل محيل، نخبك صاحِ فكأس الزمان لنا ملأى الجمام، ومن حقنا دومًا أن نختال!

---

[1] ألقي هذا النص بمناسبة تكريم الأستاذ عبد الحميد عقار (كلية الآداب، جامعة محمد الخامس، الرباط، ٣١ أكتوبر ٢٠٠٨م).

٣

خذوا الصورة الآن قبل فوات الأوان، هو ذا فتى شب عن الطوق قبل الأوان، باكورة «تنقوب» (بلدة ميلاده) الأخماسية سرت لذة ومددًا إلى فاس الإدريسية، أيقظتها من سبات، وهَّجتها بالعنفوان. خذ الصورة هو ذا، كما لو أنني لحظتها أشد على جمرة الزمن الفاسي، لأراها كرة ثلج تدحرجت من أعالي الجبال، يمتطيها الولد الأبيض قادمًا غلالة طيف، ورعشة ضيف، وباقة من أقحوان. لم تحط بأرض، كلا، وشهد، أجل، لكن من علو أتت، ونحو أعلى عليين سمت؛ أوليس أبناء هي من عشب «ظهر المهراز» سنام الزمان؟!

٤

عمر الكرة الآن تمام هذي الأرض، بين استواء وهضاب، البطاح فيها ماء، لغة أينعت بين الشعاب، زادها، وقدتُها، طوفان ما كان، ما صنعناه زين الشباب، وخدود وقدود، وتجاعيد.

مكنونة بين وشم ديار سكنناها وطي كتاب، في القلب ضنناهها، على الجلد اندبغت، هل أريكم جلدي (؟!)، لم نخنها يومًا ولا للبيع عرضناها، ولا سامت خسفًا، كما هي أحوال هذي الأرض، آه، في ذهاب وإياب؛ كرة الثلج، لمن لا يعلم، صارت جبلًا، أعلى من «تنقوب» ومن ...

٥

فلو أن «ظهر المهراز» يوم كانت المغنى والمعنى، جاءت تحدثنا لقالت، وروت، وبكل ما حوت من أبهاء القول وأبهة الكلام، فبديع البيان، إلى أن يعيا ولن يعيا اللسان، أنها عرفت فتيانًا هم النجب، ذوى عود العدا، هم الأعلون الشهب، عندي أنك جلهم، فذهم، سواء بالبوح، أم بالجهر، وأجمله كل هذا العيان.

٦

في الصباح الباكر يستيقظ عبد الحميد، يتذكر أن ديك أمه يلاحقه ليوقظ نباهته كي يستبق الطريق، أيامها كان وحده، يقطن جلبابه، لم يحفل به بعد أي رفيق، ولا همه، أيضًا، ذاك السعال الأبحَّ، إحم/إحم، أن الرفيق قبل الطريق ...

٧

متورد الوجنتين أراه، طافحًا بالبشر، واثقًا كألف يقين، بسيطًا كالهواء، خفيفًا كلحظة عابرة أو كما الظل يأوي إلى زهرة الكستناء، يتدرج من طابق ذاك الحي المهترئ اليوم صعودًا، والدرج نزول، لا يبغي صعودًا زائفًا إلى طابقهم الثالث، أولئك المردة، قبل أن يمسخوا إلى قردة! وهو لا يبغي إلا ماءً حارًّا من الكفتيريا يملأ به إبريقه لبرد كفور، وسيشرب شايًا، ويسوغه بكعكة من درة، ليمضي بعدها إلى درسه، فسيحًا كالسماء!

٨

هذا الجبلي القادم من عرين النسور، وللنسور كالأسود عرين، لم يكن قد رآه أحد، طبعًا غير الواحد الصمد، إذ حييًّا، مختلج النظرة كاليد، يذهب إلى درسه الصباحي أو المسائي، يغرف من هنا وهنا، من الضوء إلى النجم بلا سؤال أو أنين، لا يكف يطلب المدد؛ فإن خانه سعيه أو انتظاره، لم لا حدسه، نحن الذين توهمنا وقتها أنَّا جئنا إلى حضرة الأبد، طوى الصمت إلى الكلام، بلا عتاب أو ملام، وعاد إلى صلاة زهده، قد نام على الطوى أو الهوى بلا كمد.

٩

هذا الفقيه ابن عبد الله، جبار النحو والعربية، وابن تاويت بالعلم والظرف يغيث، والطرابلسي حظ النقد العربي، والسرغيني مع المجاطي، وحدهما جبلة الشعراء، وغيرهما هباء، هكذا يسير عبد الحميد يطوف بالكلية متعبدًا كأنها الكعبة تارة، وأخرى ينأى بنفسه عن أوثان صغيرة كل زادها من العلم خاطرة، أو تتعثر في بضاعة بائرة، بالنفس حرقة تذكو على جمر السؤال، وصمته فيها كأنه لوثة بين قوم، كنتُ فيهم، لست منهم، ديدنهم قيل وقال!

١٠

غادرت فاس قد تعددت في وجهي الأطياف؛ قائد وسيد وخل وأشباح وأسرار من أمام وخلاف. أنت مكمنها، حيرتني، حيرتني، وما اهتديت إلى يقين إلا بعد أن تفادح فينا

الغم، واستفحل الضيم، أنت تعلمها تلك الأعوام العجاف. بين جنبَي حنين إليها رغم كل الحيف، فجناها سُلاف. من بعيد إلى حيث رحلت، لا هروبًا بل شبوبًا، جاءني صوتك وقادًا، وانبرى للملمات ساعدًا ومدادًا، كل من قال من الفتى أجابه الدهر، رويدك، منذ دهر والحب له إيلاف!

١١

أيها الرئيس الجسور، يا أخًا لي لم تلده القوافي والبحور، قد لقيناك أمس بين بارقة من أمل وضائقة من ثبور، وها أنت اليوم تعود سيدًا ومسيَّدًا، ملء السمع، ملء البصر، في القلب لآلئ من أحبة، وعلى الثغر برهان سعد وحبور، ويا أيها الأعزة، أيها الأوفياء في زمن البلاهة والجبناء، لو أن لي شدو الطيور لغردت مثل الفرزدق يوم ناكفه جرير، منشدًا «أولئك أصحابي، فجئني بمثلهم» ووالله قد جمعتنا حول حبك المجامع أيها الرئيس الجسور …

باريس في ٢٠/١٠/٢٠٠٨م

حسب المنايا ... أمانيا[1]

(إلى روح محمود درويش.)

«كفى بك داء أن ترى الموت شافيًا
وحسب المنايا أن يكن أمانيا

كفى! كفى! كفى!
لعمرك إن الشعر فتنة
وأنت هواي

* * *

الشعر أولًا، الشعر أمس، اليوم، وغدًا
الشعر أبدًا.
في الهمس، بالحدس، وباللمس،
في الضوء المنثور،
بشهب النار، وحمم النور
يعلي فوقنا العلى، يمحو الديجور.
الشعر، بورك هذا الطور
تبجل من سماك!

[1] كتب بمناسبة جلسة تأبين للراحل محمود درويش، نظمت على هامش منتدى ٢٠٠٨م، بتاريخ ١٣ أغسطس (عشت) من عامه.

في الشغاف آواك،
المجد، كل المجد لك!

لم يبدأ أي كلام قبلك،
لن يوجد للكلم مدًى بعدك.
من سمى الأرض سواك،
كل الكواكب، ورد الكواعب،
وشاح النهار، بوحك في الليل،
متى يقطر الغيث،
عندما يبتسم الشحر،
وضفاف المعنى تفيض حنينًا،
نسمعها تناغي الوتر.

الشعر كان ...
كان الشعر ليبقى،
كي لا يتلف الإنسان.
من هو العربي؟
اليوم، في سالف الأوان.
العربي هو إنسان الشعر،
العربي قابضًا منذ النطفة على جمرة الأزل،
السالك بحرًا بحرًا، صدرًا وعجزًا، وعجزًا،
قافية، ورويًّا، وحلمًا قصيًّا،
دروب الأبدية. ممتطيًا صهوة النخوة العربية.

طللًا محيلًا بدا، أو غرة القمر.
الشعر أولًا.
كان سيبقى طريق الأمل.
للجبال أن تتململ،
للأرض أن تتزلزل،
للريح أن تعوي في القيعان،

أن تعول في أحشاء الزمان،
لهوج الأعاصير أن تهز القلاع تمخض التلال،
لأمة كناها أن تحثو التراب،
أن تنسحب دونها كل الظلال،
إلا أن يهجرها الشعر ...

أن تنام القبيلة وتستيقظ فلا تجد شاعرها،
بـ «سقط اللوى»، لا في «الدخول» ولا «رام الله»،
ولا بـ «حومل»،
فيا أله من سيغنينا،
من سيزفنا بعد اليوم إلى الأزل؟!

الجزء الخامس

تقول الشاهدة

نزار قباني ... في فاس

ما أجمل هذا الوقت الذي لا يشبه إلا وقته، قد اخترق المكان والزمان، وتسامى بموهبة الإنسان، وأكاد أراه، رغم بعده القصي يتدلى لي الآن كفاكهة، ما ألذها، دانية القطاف، رغم كل ما قد تثير في النفس من هوًى وشجن.

في مطلع العقد الستيني، وأنا زمنها غض الإهاب، المترحل المترجل من الدار البيضاء إلى فاس، من ضجيج الصناعة وعقل المال إلى دار العلم والتقى وبديع الجمال، جئت طالبًا، وما كنت أحسب أن روحي ستبقى العمر كله أسيرة، حتى بعد أن غادرت عاصمة المولى إدريس الثاني، معلقة إلى آذان الصوامع وفاتن الألحاظ وشقشقة الماء ينبع من عيون وشغاف الكلمات. ولم تكن أي كلمات، بل سلاف اللفظ، ومعين البلاغة، ورقصة الصور والإشارات، من شاعر كان وقتها يخطر بين القلوب والقوافي، ويمشي مختالًا تتجاذبه الفتنة والآهات. هو لا غيره، نزار قباني، وها هو دفعة واحدة يحل بالمغرب، وبعد عبور بعاصمته الرباط يشد الرحال إلى حيث أريج فاطمة الفهرية ما يزال فواحًا في جامعة القرويين بعد جامعها. لا أعرف كيف خطر للشاعر البهي زيارة المغرب، وإن كنت أذكر جيدًا أنه حل ضيفًا على اتحاد كتَّاب المغرب، الذي كان يرأسه يومئذٍ الفيلسوف والكاتب محمد عزيز لحبابي. وقد نظم الاتحاد لشاعر الحب العربي الحديث لقاء مع الجمهور الثقافي للمدينة في «دار الفكر» مقر هذه المنظمة العتيدة يومئذٍ، حضرته نخبة ثقافية وجرى توثيقه في مجلة «آفاق» بالتعليق والصور.

من الرباط نقل الدكتور لحبابي، وهو شاعر، أيضًا، الضيف المشرقي الكبير إلى فاس، وهو ما كان طبيعيًّا وضروريًّا أن يحدث، فهو عميد كلية الآداب فيها، أو فرعها التابع لجامعة محمد الخامس، والعاصمة العلمية، تسميتها القديمة، عنده أجدر مكان لإقامة الشعراء وساكنتها أذوق وأكثر استعذابًا لكل ما هو حسن وطروب؛ أوَليسوا

أندلسيين، ومنهم خيرة الأدباء، وفي بيوتهم، كما في الشام، يطرب الحجر! كنا في فصل الربيع، إن لم تخني الذاكرة، وما يمكن أن أسترجعه يشبه طيفًا جميلًا أحاول لملمة خيوطه الملونة، أو رؤيا أكاد لا أصدق أنني جلست في حضرتها، وتهادت فيها الأنغام والأشكال، ووجوه المليحات زدن المكان نورًا وبهاء. نظم أستاذنا لحبابي لنزار قباني الجلسة الشعرية الفاسية في أعرق مؤسسة تعليمية عصرية بالمدينة هي ثانوية «ليسي» «مولاي إدريس»، من هنا تخرجت النخبة الجديدة الأولى والتحقت بالجامعات والمدارس العليا الفرنسية بأسلاكها المختلفة، وعادت لتتسلم مقاليد الأمور في مغرب الاستقلال بدءًا من سنة ١٩٥٦م، فيما نحن الآن جلوس في مدرج الثانوية في ربيع سنة ١٩٦٦م «والأفق طلق، ووجه الأرض قد راق».

ما زالت صورة المدرج ماثلة في عيني، بمساحته الصغيرة، ومنصته العميقة العالية، هناك جلس قباني، إلى جواره عزيز لحبابي، ومدير الليسي، ونحن الجمهور قبالتهم كلنا آذان وعيون، وأعناق مشرئبة، وأنفاس متلاحقة. المكان غاص بأساتذة اللغة العربية أولًا، وبوجوه بدت متآلفة، متعارفة فيما بينها، وبسيدات لا شك من بيوت علم ومحتد عريق، وهن قبل هذا يجملن في تقاسيمهن وقوامهن ما هو معلوم عن نساء العاصمة الإدريسية من حسن خلقة وإشراق طلعة. بينهن ممن كنت أعرف عن بعد الأديبة خناتة بنونة التي سيصبح لها حضور لافت في الفضاء الأدبي لمدينتها، مع سيدات أخريات يمثلن فعلًا طليعة مثقفة ومتفتحة في مغرب كانت المرأة تشق فيه طريق نهضتها وتحررها في مجتمع موسوم عمومًا بالمحافظة.

فجأة ران صمت رهيب؛ فإذا الآذان صارت تنافس الأبصار في البصر، تتشرب الكلمات الأولى وملامح الشاعر في آن، وغنيٌّ عن الذكر أنه كان حسن الوجه والسمت، وهن يغرفن من عينيه الخضراوين قدر ما استطعن، والكل حقًّا متوله تظنه وهو يستمع إلى الشعر أنه حضر أكثر من فرط هواه بالشاعر، ولا غرو فالرجل كانت شهرته قد طبقت الآفاق مبكرًا. أحسب أنه هو بدوره لم يكن مصدقًا درجة لهفة الجمهور لسماعه وتذوقه الأصيل لشعره، جالسًا، منصتًا في رهبة وخشوع لا تشوبهما، إن شابت، إلا بضع آهات وزفرات تسري كنسيم له اعتلال في أواخره، يقرأ نزار، يهمس، لكلماته جميع أصوات الأرض ولغات الكواكب والرغاب، يغني للحب، وأمامه قلوب فطرها الشغف والوله، لذلك قرأ وأجاد، وزاد، مستجيبًا لرعشات أنامل خلتها تتحسس وجهه، وعيون تغرق في مرج عينيه، وبقينا على ذلك وقتًا كأنه ليس من الزمن، وهو الزمن كله، لم

نفطن إلا وقد خرجنا من المدرج لنتلفع بمعطف مساء فاس قرب باب أبي الجنود، وأذان صلاة المغرب يعانق لحظتها قرص المغيب، وخطوة، خطوة لمحت شاعر الجمال يغيب، أخذته عني أحضان وحفاوة فاسية، وأسرار لا يحس بها إلا غريب أو حبيب موله بغياب حبيب.

بَيدَ أن أخطر سر في زيارة نزار قباني لفاس لم يكشف عنه النقاب أبدًا هو كون اللقاء به تم خارج حرم الجامعة، وكان حريًّا أن يلتقي بطلبة الآداب، وعلمتُ أنه رغب في ذلك، وهناك من عاتب العميد لحبابي على استئثار الصفوة الفاسية بالشاعر الكبير وإبعاده عن طلاب كانوا يعرفون مسيرته الشعرية جيدًا، وبينهم موهوبون، يدرسهم كذلك شعراء نابغون. واليوم أستطيع أن أقول، وقد طُوي زمن كامل، أن السبب إلى الوضع الطلابي المحتقن آنذاك، وانشغالنا نحن طلبة كلية الآداب، بأمور النضال (كذا) وهو ما ظنه البعض، من أسف، يتعارض مع الحب والغزل مما فُطر عليه الإنسان فوق كل الأيديولوجيات، ومن الطريف حقًّا أن تلك الفترة شهدت صدور ديوان لأحد طلبتنا النابهين والرومانسيين، محمد عنيبة الحمري، بعنوان: «الحب مهزلة القرون»!

شهرزاد تبوح لجمال الدين بن الشيخ ... في باريس

كأن اليوم أمس، وقاعة الدرس المستطيلة تمتد أمامي، أنا أحد جلسائها، بين نخبة من باحثين جامعيين، وطلبة مرشحين للدكتوراه. كنا في نهايات الثمانينيات، واللقاء امتد سنوات.

بالكوليج دي فرانس، هذه أهم مؤسسة أكاديمية وأرقاها علميًّا في فرنسا، لا يحظى بكرسي التدريس فيها إلا فطاحل الأساتذة وكبار العلماء، ميزتها أنها تعطي العلم لكن بدون شهادات. من هؤلاء أستاذي وصديقي المرحوم جمال الدين بن الشيخ (١٩٣٠–٢٠٠٥م) الذي كان إلى جانب شغله كرسي الأدب العربي في جامعة السربون، يدير حلقة دراسية في الكوليج يحضرها، ويشارك في تسيير حلقاتها أساتذة وباحثون مختصون.

حضر بن الشيخ إلى فرنسا من بلده الأصلي الجزائر؛ حيث كان مدرسًا بكلية الآداب، وكان مجيئه بمثابة احتجاج على السياسة المتبعة من طرف الرئيس بومدين، فانخرط مباشرة في سلك البحث العلمي باريس، ثم أستاذًا في جامعة فانسين، وبعدها في السوربون إلى تقاعده فوفاته رحمه الله. كان أستاذي بن الشيخ، وهو واحد من بين من أعددت أطروحتي لدكتوراه الدولة في السربون على يدهم، وهو العميق الدراية بالثقافة الفرنسية، موسوعة أدبية لها؛ عربيًّا قحًّا، وذا غيرة على بلاده وأمته لم أعهدها إلا في قلة ممن عرفت أحياءً وأمواتًا من الأكاديميين والأدباء المقيمين في الديار الغربية، وخارجها، أيضًا. نال الراحل شهادة التدريس، ثم الدكتوراه عن جملة أبحاث دقيقة عن الأدب العربي في العصر الوسيط، هي التي تضمنها كتابه المرجعي «الشعرية العربية: بحث

في خطاب نقدي»، وهو من أبدع مفهوم الشعرية العربية ليصبح عنوانًا على الدراسات التي تختص بتقعيد تراثنا الأدبي ومفهمته وتخصيص جمالياته. وقد ساعده باعه الشخصي كشاعر مُجيد بالفرنسية على تذوق النصوص، والتغلغل إلى مجراها العميق، فبزَّ المستشرقين (بلاشير، وجاك بيرك وغيرهما) باعتبار أن الرجل كان يتحرك في حقل ثقافته الأم، وينشد تمجيدها في مواجهة ثقافة الآخر؛ إنها مسألة هوية.

لم يقتصر بن الشيخ على سبر الهوية العربية بفحص مكونها الشعري الجمالي المعرفي، بل ذهب إلى صميم جوهرها الحلمي، إلى فضاء التحليق بالخيال، بواسطة أجنحة الحكاية، فقدم بهذه المقاربة إغناء لأحد أكبر مصنفات المخيلة الإنسانية، الحافل بالتجليات العربية، نعني كتاب «ألف ليلة وليلة». على امتداد سنوات ونحن نتحلق حول جمال الدين بن الشيخ في «الكوليج دي فرانس» وهو يعيد قراءة النص الألف ليلي، قد حرره، أولًا، من ترجمة المستشرق الفرنسي أنطوان جالان (١٧٠٤م)، التي لحقت بها ترجمة الدكتور جوزيف شارل ماردروس، منطلقًا من طبعة بولاق القاهرية، ومحققًا كثيرًا من الحكايات المصطنعة أو المنحولة يعود بها إلى بيئاتها الأصلية، ويغربل أصولها، فارسية أو عربية، وما أضافته إما مخيلة المترجمين، أو رواة الليالي المتعاقبين. بيدَ أن الأهم، بعد هذا وذاك، في هذه المعالجة هو الاختصاص بالعنصرين التاليين: توكيد الرؤية الحلمية، والعناية بالحكاية، وهي شفوية باعتبارها مكونًا ثقافيًّا للشعوب، هي المحسوبة في عداد الثقافة غير العالمة، (الخاصة غالبًا للعامة) في وجه نقيضتها الثقافة العالمة ذات التفوق والهيمنة والحظوة في المجالس والدواوين المؤهلة للتدوين.

كانت حكايات ألف ليلة وليلة عند أستاذنا تخرج من ثناياها المجعدة ينقلها إلينا متشحة في غلالات ملونة، قد اكتست بهاء الأرض وسحر الخفاء الذي ينقلك من أرض الواقع الغربي الصلد بماديته الماحقة إلى آفاق الخيال المتوقد تسبح فيه الشخصيات والمغامرات، وتتناسل معه الحكايات تباعًا راسمة جغرافيا من خطوط طول الأرض، وخطوط عرض قارات الحلم والاستيهامات، لكن بينهما دائمًا قلق العالم الذي شاغله القبض على الحقيقة الهاربة، ومحاولة تصنيف حوافز ومولدات الخيال والتخييل البشريَّين، مع شيخنا بن الشيخ وحوله انبثقت في باريس الثمانينيات حلقة الباحثين الحالمين الشغوفين بتراثهم بوصفه إضافة حلمية إنسانية استطاعت أن تعبر القرون، وتحبل بأجمل ما في الإنسان. حلقة كانت متمكنة من أجدِّ مناهج البحث العلمي للعلوم الإنسانية في الجامعة الفرنسية يومئذٍ، وهي تُخضع النصوص لقراءات وتأويلات شتى

تنتج المعرفة بقدر ما تُغذي فضولًا مستمرًّا يجعل من الأسرار وسحر الخفايا وتوالي المغامرات يقود هذا كله عنصر التشويق، الذي أنقذ شهرزاد من سيف شهريار، قد جعلت من رواية الأخبار مجزأة، والبوح مقطعًا، والغواية مركبًا، والحكاية برمتها مناط تعبير ترقى فيه الرؤية الشعبية إلى صعيد الرؤيا؛ حيث الخيال هو قطب الجاذبية بوصفه أقوى ما لدى الإنسان، لا مصدر ضلال أو هوى، وباختصار يصح في قلب الثقافة الإنسانية.

حين انتهت محاضراتنا في الكوليج، وتفرق أعضاء حلقتنا، أذكر الأعلام عبد الفتاح كليطو، الشيخ موسى، إبراهيم النجار، عبد السلام الشدادي، مع جامعيين فرنسيين مرموقين، ومضى كل إلى غايته، وغادر شيخنا الجامعة بسبب التقاعد إنما ليقع نهائيًّا في غرام شهرزاد ويغدو أسيرها، هي التي كرس لها كتابًا سابقًا بعنوان «ألف ليلة وليلة، أو القول الأسير» (غاليمار، ١٩٨٨م) ثم كتابه باشتراك مع أندري ميكل، وكلود بريمون «ألف حكاية وحكاية» (غاليمار، ١٩٩١م)، فقد عكف منذئذٍ، برفقة زميله البروفيسور أندري ميكل المتخصص في الآداب العربية وأستاذها في الكوليج الذي كان مديرًا له، على إعداد أول ترجمة منقحة وأمينة وموثقة لليالي، وأهم من هذا مصوغة بفرنسية فخمة وحده بن الشيخ يجيدها بين أقرانه، وهو الشاعر المفحم في لغة بودلير، الحداثي الأصيل، وهي التي صدرت تباعًا عن منشورات غاليمار الباريسية، في سلسلة «لابلياد» التي تُعد أرقى سلسلة أدبية في فرنسا تخصص لنشر أعمال الخالدين، وبهذه الترجمة الضخمة والرصينة تجدد الاعتراف بـ «ألف ليلة وليلة» كقطعة نفيسة في تراث الحكي الإنساني، وجمال الدين بن الشيخ كعربي وشاعر ومثقف رهن حياته لتسمو الحكاية ويبقى الخيال والدهشة سيدا العالم أبدًا.

محمد زفزاف:
ناسك من الدار البيضاء

حين نشر محمد زفزاف (١٩٤٦–٢٠٠١م) قصته القصيرة الفريدة «الغيلم» كان قد غدا طويل الباع في كتابة الإبداع السردي قصة قصيرة ورواية، وفي الأولى خاصة، واحدًا من أعلامها الكبار في العالم العربي، فهو الذي أنشأ نصوصه السردية منذ منتصف الستينيات، واحتفلت مجلة «شعر» البيروتية وبإشراف يوسف الخال على إصدار روايته الرائدة «المرأة والوردة» (١٩٧١م) التي أبرزت بطريقة متميزة إشكالية العلاقة بين العرب والغرب وطموح التفتح لدى جيل جديد. ومضى زفزاف على امتداد أربعة عقود يسهم مع أعلام كبار في ترسيخ البنيان القصصي لأدبنا الحديث، يصور واقع مجتمعه، ويبرز بؤر التوتر والتطلع والحلم لدى أفراد طبقة منهكة وتنحني في الحياة كالديدان؛ كل ذلك بطرائق وتقنية فنية عالية.

أقول قصة «الغيلم» التي أثارت لدى نشرها في نهاية الثمانينيات اهتمامي، بعد أن علمت خبرها من المؤلف نفسه، الذي كان أحد أصدقاء حياتي منذ جاء من القنيطرة، مسقط رأسه، والرباط حيث درس، ليتسلم وظيفته التعليمية في إحدى ثانويات الدار البيضاء، ويقضي بها عمره كله، حي المعاريف الإسباني البرتغالي بالذات، إلى أن وافاه الأجل المحتوم بسبب مرض خبيث. بعد تجربة زواج لم تطُل عاش السي محمد وحيدًا، منصرفًا بالمرة إلى عمله الوظيفي، وكتابته، تتخللهما علاقات وصداقات محدودة جدًّا، أما حركته الخارجية فإلى أحياء محسوبة، وإلى مدينة طنجة الدولية في فصل الصيف، وكفى. لكنه وجد على طريقته كيف يتواصل بهدوء وسلام، وهو ما كشفته حين طرقت باب شقته المتواضعة ذات صبيحة شتوية؛ فأدخلني إلى غرفة الاستقبال البسيطة والباردة، وتلفع بغطاء، تاركًا يده تعبث بورقة كرنب بعد أن دعاني إلى الجلوس. كان في بيته

ضيف سابق، بل شريك مقيم هو الغيلم، ورأيته يتحرك حرًّا، يخرج رأسه ليقضم قليلًا من الورقة ويعود يخبئه أو يتنقل بسلحفائيته المعهودة في جنبات الغرفة؛ حيث يبدو أن له أماكن وعادات، وزفزاف ينقل بصره بيني وبينه وسيجارة يرسل دخانها رخيًّا في الهواء.

كان زفزاف ككاتب وإنسان يعيش حياة يمكن للمجتمع المحافظ أن يصفها بالبوهيمية، أي العيش باختلاف عن المجتمع، وهذا في الوقت الذي دشن في الأدب السردي، قبل محمد شكري، الكتابة عن حياة الهامش والمهمشين، انطلاقًا من رؤية اجتماعية وجودية ومأساوية.

ويمكن لمن يرغب في دراسة وفهم المجتمع المغربي في مرحلته أن يعود إلى السرد الزفزافي ليجد فيه كثيرًا مما يضيئه، ويعري تناقضاته. هذا القاصُّ ذاته، وبالرغم من الحكم المسبق الصادر عليه عاش حياة رضيَّة، وبدا في وجوه عديدة من سلوكه وعيشه متساكنًا ومتآلفا مع بني جلدته، وجيران حيه بصفة خاصة، إلى حد أن أصبح يمشي في زقاقه حد أن أصبح يمشي في زقاقه بحي المعاريف تتبعه كالشيخ شلة أطفال وهو يعبث برءوسهم الشعثاء، ويوزع عليهم الحلوى بسخاء، تظنه حين تراه درويشًا، وقد أصبح كذلك على مر الأيام، ولذلك، أيضًا، قصة تستحق أن تُروى.

مع مطلع التسعينيات بدا لرفقة محمد زفزاف أنه يتغير، ويوثر العزلة، وإن جالسته اختلط حديثه بآيات وأحاديث نبوية، ويحبذ النطق بالعربية الفصحى، وعمومًا صار لخطابه مضمون تقوى. عزز هذا تحول مثير في هندامه. فقد عرفناه دائمًا متقشفًا في عيشه وملبسه، يقظًا، لا مسرفًا ولا مفرطًا، مع إقبال نهم على الحياة وإيمان بالجديد ومناصرة له منطقًا وإبداعًا، وها هو ذا دفعة واحدة يرسل لحيته مثل أي واحد من فقهاء المغرب، هو الذي كان في شبابه الأول ذا رأس من فصيلة «الهيبي» تقريبًا، كما كان بعض جيله، ويحيط عنقه بكوفية حمراء أو رمادية فلسطينية، وأحيانًا يدير في يده سبحة، ويمشي الهوينى في زقاقه، من بيته إلى الأماكن الحميمية التي كان يُقبل فيها بانتظام وانسجام على ملذات حياته، ومنها يئوب إلى البيت الذي كأنه لناسك أو برج عاجي.

وقد اتفق لي أن زرته يومًا، وهو في هذه «الطريقة» فوجدت بابه نصف موارب، وهو جالس على حصير، ملتفًّا بعباءة وحوله، وهذا الأهم، امرأتان جالستان القرفصاء، تستمعان إليه بهيبة وخشوع، فيما الشيخ زفزاف يبدو كمن يتلو أورادًا، ويرسل تعازيم،

أو شيئًا من هذا. وقد مضى وقت قبلن يده وانصرفن، وكأنه حدَس استغرابي فبادر يبدد الغموض، وربما ما قرأه مني استنكارًا أو تعجبًا، قائلًا ما معناه، وهو للمناسبة موجز في الكلام، مثل قصصه، دالٌّ، وموحٍ، قال رحمه الله: «أحب أن تعلم أني مورَّط في هذا الوضع، وسكان هذا الحي استنكروا عليَّ في أول عيشي معهم سلوكًا، ثم ما لبثوا مع طول العشرة أن عدَّلوه، ورأوا فيَّ فقيهًا، ويعترفون لي بخاصية الكتابة، وبما أني كاتب بشهادة الصحف التي تنشر صورتي، والتلفزيون الذي جاء ليسجل معي هنا، قالت نسوة الحي لم لا أكتب لهن تعاويذ لأغراض شتى، ثم إنهن يستظرفنني، ويشفقن على وحدتي، ومنهن من يرسل لي طبيخًا طيبًا بعلم الأزواج، وأنا، كما ترى، أتجاوب مع أحزانهن وأحلامهن، أليس هذا في النهاية هو عالمي في الكتابة؟!»

مضى عهد وإذ بي ألتقي بمحمد زفزاف في إقامتي الباريسية، وتشاء الأقدار أن أزوره في المستشفى بالدائرة ١٣، وهو يعاني من الورم الخبيث، وكله أمل في مواصلة حياة باتت آفلة، لكني رأيته وسمعته يتوجه بثقة وحرارة إلى المولى عز وجل أن يرأف به، ويعيده إلى وطنه معافًى. وإن الأديب المغربي الشاب محمد المزديوي ليذكر وهو الذي أظهر كل النبل في مرافقته لهذا الكاتب الكبير (وهكذا كنا نلقبه، نكاية بشكري الذي أحب أن يتسمَّى الكاتب العالمي!) وهو في أقصى معاناته مع المرض. وحين عاد في الرحلة الأخيرة إلى الدار البيضاء، كان الناقد والباحث الورع الدكتور إدريس الناقوري، يقضي معه جل الوقت في العيادة حيث أسلم الروح، وهو يتلو معه القرآن الكريم، ويخبرني صديقي السي إدريس بأن ما لاحظ فيه من ابتهال لا يعدله إلا قوته الأدبية، ومجده القصصي الذي لا يُعوض حقًّا؛ وتلك الأيام نداولها بين الناس!

ما أصيلة بلا سيدي الطيب؟!

يحدث أن الصيف يأتي مسربلًا بموجه الشفيف، كقدٍّ أهيف خفيف، صيف تعلنه النوارس تحلق من حيث لا تعلم وهي تغنج بالرفيف. زبَده لاهث يلثم الضفاف، والشوق لعودته ذاع سرُّه، تسمعه الهتاف. هي ضفاف البلدة المستريحة على كتف المحيط، منذ كم من السنين، تسمو بالفرح البسيط ولا يهزمها الأنين. تذهب وتجيء حاملة وِزر الأيام، مهدهَدة بين الفصول، وحنينها للشمس، لكرمة الأحبة، لنخوة التاريخ أبدًا يصول. إذا مررت بها شتاءً وجدتها منكفئة على حزن أليف، أو هي تكرع من مواجدها صامتة، وفي الصيف تنضو عنها ظلال الكمد، عارضة أسوارها لشمسها اللافحة تحت سماء قريبة، تمسح جبهتها بالأبواب والشبابيك والعتبات تلوِّنها تارة بالأزرق، أخرى بالأبيض، والنجوم أبدًا قبلات تُقطف من الخدود، والصبايا كالقطا يخطُرن، ومن السطوح يُطل ورد، تُلوح أيد ترشق بالقدود. هي أصيلة المغربية البهية، البلدة الأبية، كأنها لم تكن إلا بقعة في الجغرافيا، وإذ بها تزهو اليوم علامة في التاريخ، تُمسي صنو الأبدية.

لأصيلة منذ ثلاثين حولًا موعد مع نفسها كل صيف، مع عيدها الذي أقرَّه له ابنها البار الفنان والدبلوماسي محمد بن عيسى بتشريع قلبي؛ فدخل في حبه الآلاف منذئذٍ وعادت محجًّا للقاصي والداني، وصار الفنانون والمفكرون والأدباء ورجال الرياسة والسياسة يتدافعون إليها بالمناكب، من كل فج عميق يفِدون، تراهم يتنافسون، كل بما آتته فطرته أو واتته صنعته، وكلهم بحبها يهذون، وحول سيدها ابن الهادي بن عيسى يقيمون حضرة الصفاء والوفاء، أوَلم يعثر على أفضل شفاء لأوجاع القلب وشقاء العقل في هذا العصر: تحقيق النهضة والتقدم للإنسان بالفكر والفن، وجلب المنفعة بقوس قزح وخيوط الشمس الذهبية؛ فأيُّ عبقرية!

كان الروائي العربي الكبير الشيخ الطيب صالح نفعنا الله بشامخ أدبه ورفيع خلقه، من أوائل الملتحقين المؤسسين لمهرجان أصيلة الذي ستسير بذكره الركبان؛ وذلك في زمن بداياته الصعبة والمربكة، لم يكن قد تحقق له بعدُ الإجماع ولا الإشعاع الدولي الذي حازهما في الحاضر، فارتاد الموكب، ومشى فيه بهامة عالية، بلا تردد ولا وجَل، وفق اقتناعاته لم تتبدل، ونِعم الرجل. كنت عرفت سيدي الطيب، كما يسميه خِله محمد بن عيسى، قبل الوقت الأصيلي بزمنٍ يعود إلى نهاية الستينيات، أتذكر وقد عثرت على عدد من مجلة «حوار» حيث نشرت للمرة الأولى روايته الفريدة «موسم الهجرة إلى الشمال»، وقدمت عنها للتو عرضًا لسنة الإجازة في الآداب، ومنذئذٍ اقتفيت أثر ما يكتب، إلى أن يسَّرت لنا الأيام فرصة التعارف، وربطت بيننا أسباب الود ما رسَخ — ولله الحمد — وامتد.

التحقت بموسم أصيلة الصيفي متأخرًا عن كثير، وإن صرت متقدمًا في الالتئام بجمعه والالتزام بشروطه على كثير، وأظن أني فضلًا عن فرصة تبادل الحوار والمعرفة، والانفتاح على آفاق أوسع، كسبت من هذا المهرجان معرفة رجال أخيار، بعضهم يوزن بميزان الذهب، وإن كان لي بعد سيد ذلك المقام أن أنتقي بينهم؛ فليس عن سيدي الطيب عندي بديل في الاختيار. فإن سائر الزوار حين يحلُّون، تراهم يتلفتون ذات اليمين، ويسألون ذات اليسار، أحضرَ الرجل أم هو في الطريق، أما غيابه فحذار، فما إن يروه، وأنا منهم، إلا وطفح البِشر على الوجوه، وغمرنا بوجوده السرور، وترى الحياء في محياه، يتنافس صوته وسناه لتقديم السلام أو الرد بأحلى كلام، قد التفَّت حوله الأطياف، وتجاذبته الأحضان والألطاف، وما بقي قريب في مجلس أصيلة أو بعيد زكي الأعطاف، إلا لوصله اشتاق، وبحضرته طاف، والله وحده يهب لخلقه هذه الجاذبية وييسر لعبده المومن وأديبه الموقن ما يزكِّيه لدى العباد من شمائل لِطاف. والحق أن بلاد السودان بفضله غدت شريكًا قلبيًّا وأدبيًّا في موسم أصيلة، انعقدت أخوة بنيها مع الأهالي الزيلاشيين؛ فأمست لديهم حجًّا سنويًّا، يقبلون عليها يؤجرون البيوت، وينتدون ويولمون ويصخبون، وما هم في الحقيقة إلا من أجله يقبلون، وحول غرته وطباعه السمحاء ينيخون، إذا تكلم الطيب صالح أسرعوا ينصتون كأنهم سيُرحمون، وهو بكل مجلس حل، وبأي ممر عبر، تراه يُغضي حياءً ويُغضَى من مهابته، والقوم أبدًا، كبارًا وصغارًا، بذكره يلهجون، من سيدي محمد بن عيسى إلى مريده طلحة جبريل، إلى من ترقرقت أحداقهن، قلن أسكننه باكرًا في السويداء، ويحمينه بسواد العيون.

ومن عامين خلَيا تباعد الطيف البهي، وما حل سيدي الطيب بأصيلة، روحه فيها دائمًا لكنه هو جسدًا ليس فيها، إذا دخلت فندق زيليس حيث يحب أن يقيم، يفضله على إقامات تلك «النجوم»، أحسست حقًّا بالغياب. عادة حول مائدة الفطور نلتم حوله، نستيقظ باكرًا نحن الذين نكاد لا ننام نخاف أن يفوتنا عذبه، أو لا نجني رطَبه، وبين قاعة الندوات الحسنية وباحتها الداخلية، ومحافل السيد بن عيسى الحاتمية، يظل أكثر من واحد ينقل البصر بين المنصة والمدخل متفقدًا؛ فلا يرى من اعتاد يجلس مستريحًا داخل عباءته الفضفاضة، تُجلي وجهه جبَّته البيضاء، ملامحه رخية، وجسده مكتمل فيه وكأنه ليس منه، لا يبدي قلقًا ولا توجسًا إن تحرك، يحتاج إلى حنجرته فقط ليصمت كل متكلم، وينتبه أي ساهٍ، يفحم كل ناطق بأي حجة جاء؛ فلسانه البليغ مرآة ظنه وقلبه، وبالطيب والطيبوبة ورجحان العقل وذلاقة اللسان ينطق سيدي الطيب، مذ عرفته ووددته في أصيلة وإلى أن غاب عن موسمَيها الأخيرَين تمنعه صحته عافاه الله، فلكأنها وهي العامرة، وبوجود واستمرار رائد نمائها محمد بن عيسى زاهرة، تبدو للعيان قاعًا صفصفًا أو تكاد، وهذه مبالغة في القول، والهوى يشط بصاحبه فلا ملامة، إنما الأرض كانت دائمًا بأهلها، والمكان والزمان لا معنى لهما بدون الإنسان، الذي يألف ويؤلف، ويقيم سكناه في قرارة الفؤاد، أما أصيلة فباقية بقاء رجالها الأفذاذ، وتلك الأيام تُداوَل بين الناس من عهد عاد.

الجزء السادس

رحيل الأمكنة

فراغ الأمكنة ... بعد تلفها

١

اليوم هو الأحد الموافق لتاريخ التاسع من شهر نونبر لعام ٢٠٠٨م. المكان هو مدينة الدار البيضاء، ساحة مرس السلطان بالمدينة الجديدة، وبالتحديد الباحة الخارجية لمقهى كونكورد المشرفة على الساحة، من زاوية اليمين وشارع مرس السلطان، من ناحية اليسار.

الطقس ربيع بينما نحن في منتصف الخريف. عمومًا ليس في المغرب، منذ وقت، فصول محددة، والزمن يمشي متقاسمًا بين الحر أو القر، بين الجفاف أو الغيمة الممطرة. سماء زرقاء زرقة حادة لا تحدث إلا في ازدهار فصل الربيع وأوائل الصيف، وبذا فهو طقس استثنائي. الطقس حار بعض الشيء، وهو استثناء آخر لهذا الموسم الذي يعرف دخول البرد؛ ولذا ترى السكان يحتكمون إلى خبرتهم الماضية قد ارتدوا ثيابًا صوفية أو من قبيلها اتقاءً وتحسبًا لبرد يعونَ أنه قريب منهم، وهو على كل حال يخزهم مساءً هو الذي يسمونه السَّمرة.

تكون ساحة مرس السلطان عادة يوم الأحد شبه فارغة، حركة السيارات والسابلة قليلة جدًّا، قياسًا بباقي الأسبوع حين تتحول إلى معترك للمرور ليلًا ونهارًا، بما أنها ملتقى أربعة شوارع تصب فيها عشرات الأزقة الفرعية، وهي إحدى الممرات الحتمية بين المدينة القديمة والجديدة، الفرنسية سابقًا، على أي حال. منذ قديم، من أيام الوجود الفرنسي عرفت هذه الساحة ببعض المقاهي والمطاعم، الحانات (Les brasseries) تقدم مشروبات وأطعمة طيبة، نظيفة، لا يرتادها إلا الفرنسيون المقيمون، والعاملون في سلكهم، وبعض أعيان المدينة؛ لذا اشتهرت بنصاعة أبنيتها، وانتظام تنظيفها أشهره

غسل كل الأرصفة القائمة بها في الحادية عشرة من كل ليلة، أوَليست تؤدي إلى مقر عمالة الدار البيضاء، وإلى الإقامة الاستعمارية الفرنسية بساحتها الفسيحة التي كان تمثال الجنرال ليوتي، وهو على ظهر فرس مطهم، ينتصب بوسطها قبل أن يتم إدخاله إلى الإقامة بعد حلول الاستقلال، وهذا بعد وقت؟!

في الزمن الستيني للقرن العشريني مثلت ساحة مرس السلطان أحد مراكز حداثة الدار البيضاء، ومظاهرها التمدينية، وشخصت فيها مع الحي الذي تتبوأ وسطه السمات العمرانية الفريدة للمدينة، الباروكية بصفة خاصة، التي يمكن القول بأنها بصدد الانقراض اليوم، وآيلة حتمًا إلى ذلك بعد أن تغير وجه وساكنة المدينة رأسًا على عقب. في هذه اللحظة من ظهيرة الأحد، والشمس في كبد السماء، على غير عادتها هذا الموسم، تبدو الساحة متراخية، كسولة كقطة تتمطط في الحر، ولا تخاف أن تتعرض بعد للاعتداء؛ فالمغاربة يعتدون بضراوة على الحيوانات، لا يقيمون لها حسابًا قط. بضعة أفراد يملئُون كراسي المقهيَين المتقابلَين، اللذين عاشا طويلًا، وما زالا، تنافسًا صامتًا سواءٌ بين مالكيهما، الفرنسيين، وبعد انتقالهما إلى ملكية أهل سوس الذين يسيطرون على تجارة البقالة وكثير من المطاعم والحانات؛ كما بين زبائنهما يضمرون ويجهرون في آن بالعداء، مظهرين غيرة عجيبة على المكان كأنهم أصحابه. وأنت لو تأملت لوجدت أنهم محقون، لا سيما قسم منهم يقضون ربما نصف حياتهم فيه، وبه يتزوَّدون ليلًا بكميات من الخمور لمواجهة قلق غدهم، ثم بعد طول تطواف إليه يرجعون.

ليست ظهيرة الأحد هنا على هذه الدرجة من الخمول، ربما البؤس؛ فهناك دائمًا زبائن عابرون أو يتسكعون. هؤلاء اعتادوا أن يتأخروا في نومهم، ومباشرة، أي في حدود الحادية عشرة صباحًا، يغادرون بيوتهم كما لو أن النار تحرق مؤخراتهم؛ ليصلوا إلى أحد المقهيين، يزعمون أنهم في عطلة، والحقيقة أنهم يهربون من زوجاتهم ليتكالبوا بأسرع ما يمكن على احتساء عدد لا بأس به من الجعات، يرونها حتمية لإزالة ما تبقى من خمار البارحة، وفي الوقت يراهنون على سباق الخيل، بينما أحاديثهم عن أمجاد الماضي وغزواتهم في النساء وتطلعاتهم الخاسرة لا تكاد تنتهي أم ينتهي الزمان. لكنهم يضطرون في الأخير للمغادرة بوجوه شاحبة؛ ليعودوا قبيل الثانية ظهرًا إلى بيوتهم لتقاسم وجبة الغذاء مع زوجاتهم، تراهم عائدين مطأطئي الرءوس كأنهم يساقون إلى المشنقة، مفلسين وخائبين ومحبطين، ولا حول.

يوم الأحد ينتهي في الساحة قبيل العصر، فلا أحد يرتادها مساءً، ولو اتفق أن مررت بها لوجدتها قفرًا، تشبه سوقًا تفرق باعته وشراته بعد عمر يومًا كاملًا، بل

تحس فيها بالوحشة، خاصة في أيام البرد والمطر، أضف إليها مناسبات الأعياد الدينية حين تضطر المقاصف للإغلاق بتعليمات من الأمن، وهو قرار حديث العهد جاء متوازيًا مع تصاعد مد الملتحين، وذا ما لا يفهمه أبناء هذا الحي وأمثاله، يضيعون البوصلة ويصابون خلالها بالاكتئاب، خاصة منهم الجيل القديم الذي لا يستسيغ أن يمتد المنع إلى كل شيء.

لو أن واحدًا من هؤلاء، من الأحياء أو الأموات، عاد ليُعاين ما أمست عليه مرس السلطان لضرب أخماسًا في أسداس. ستتداعى في ذهنه الذكريات، وما أكثرها، عن مجد مضى لزمن انقضى، وتتواتر الصور لآلئ منيرة بالليل والنهار، وبإمكانه أن يشغل الشريط في قصة متعاقبة، كما في لقطات منتقاة، في هذه الأخيرة على الأصح؛ لأن الشريط كله سيصبح جارحًا بقوة ما سيثير في النفس من حنين وتفجُّع بسبب التضارب المريع بين واقعين وزمنين لمكان واحد، في قلبهما إنسان، أناسي، يتشبث بالبقاء واحدًا، رغم قولة إنك لا تسبح في النهر مرتَين. لنقُل، مثلًا، إنه يمر بها والساعة منتصف الظهيرة، وفي القلب منها منصة دائرية يعتليها شرطي، أنيق الهندام، وسيم وفارع الطول، تدير يداه برشاقة حركة المرور؛ فيمضي على إثر كل حركة ذراع وإشارة أصبع سرب سيارات متمهلة، لا يصدر عنها زعيق زمامير، ولكأنه وهو يواصل إصدار الإشارة تلو الأخرى مايسترو لجوق سِمفوني، بلا ملل ولا كلل.

وها هم فرنسيون وسيدات أنيقات يفوح لمرورهن عطر خفيف تتنسمه جالسًا كنت أم عابرًا؛ فهي جنة فيحاء هذه لا واحدة من سوح. إنهن غاديات رائحات براحة فلا تلتهمهن العيون، وإن أدهشن الأبصار وغمرن باللهفة البصائر، يقصدن متجر الورود الكائن بتقاطع شارع مصطفى المعاني، يُعِد لهن باقات تنافس ورد الخدود، بعدها يمضين إلى ألذ حلواني يرجعن من عنده بعلب موشاة، وشهوتهن إلى الحياة مفتوحة على شهوة الرجال المستريحين في باحة المقهيَين إياهما يشربون فاتح شهية مدخلًا للغذاء؛ لينخبوا كئُوسًا عِذابًا عندما يأتي المساء.

لو أن واحدًا من الأحياء أو الأموات انطلق مساءً من متجر الحلواني آخذًا وجهة جنوب شارع مرس السلطان، يمينًا، وليكن الوقت التاسعة ليلًا، والمصابيح مضاءة ترسل نورًا نظيفًا، وأعمدتها صقيلة، ووصل إلى سينما «لانكس» ليجد نفسه في مدخلها المفرح واقتطع له تذكرة ليُمضي قسمًا من السهرة مع فيلم أمريكي أو فرنسي رفيع؛ فالأفلام العربية والهندية متروكة لقاعات المدينة القديمة والشعبية، ثم دلف رأسًا إلى البهو المنشرح، وها هي فتاة بلباس أحمر تأخذ بطاقته وتقوده تحت نور خفيف إلى

مقعد وثير بقطيفة حمراء، وإذ يبدأ العرض يعم القاعة صمت كنَسي فلا همس، اللهم أن يتلامس محبون أو يتلاثمون، وقد تخطر في الجو زفرات أو تتقطع أنفاس من تأثير لقطة ذات تشويق تشدُّ الأعصاب؛ لتعود تنفرج مع إعلان استراحة ما ألطفها تدوم ربع ساعة ويتناول خلالها المشاهدون الإسكيمو البارد اللذيذ، بدونه لا تكتمل متعة المشاهدة. وحين ينتهي العرض يتفرق الجمهور بهدوء، ويسيرون في أمان قبيل منتصف الليل، لا ما يعكر هدوء الليل أو يهدد أمان العودة إلى مساكن قد مرت أمامها شاحنات جمعت نفاياتها، وأخرى غسلت أرصفتها، وفي الصباح تنعكس عليها الشمس وضاحة، بينا في الهواء تُشم نسمات كالعبير.

لو أن واحدًا من الأحياء أو الأموات اجتاز مقهى الكونكورد خطوات على يمينه شمالًا لاستوقفته مقهًى صغيرة، الوحيدة في مطلع السبعينيات جاءت لتنافس الأخريين الشهيرين، هي في الحقيقة قامت على أنقاض مطعم إيطالي ربما كان اسمه «الماما» ما ألذ اختصاصاته. لم يعطِ المالك الجديد اسمًا لمقهاه، واكتفى بتغيير تأثيثها بكراس خضراء مريحة، وطاولات دائرية محيطها الأعلى زجاجي؛ فاتخذها كاتب هذه الكلمات مجلسه النهاري، لفطور الصباح غالبًا، وقهوة العشي أغلب، وسماها «الخضراء» وبها عُرفت تدريجيًّا بين زبائنها، راحوا يتأسسون من أفراد هيئة التدريس، ومن محامين أو قضاة، وبعض سماسرة، ومن مخبرين، أيضًا، يرخون آذانهم لسماع ما يقال عن السلطة القاهرة في ذلك الزمان، إلى أن تميزت لاحقًا بمجلس كُتاب ومثقفين، يتداولون فيه شئونهم وشجونهم، ويحسب فيها المدرسون أعوام ترقيتهم المنتظرة، والأدباء مدادهم المهدور في الدفاع عن طبقة لا تحفل بالقراءة وشعب مغروس في التواكل، حتى صارت «الخضراء» مقصد زوار من كل فج عميق، وادَّعاها بعد ذلك أغراب عن الساحة لهم، حين رحل عنها من اتخذها «زاوية»، وكل هذا عفَّى عليه الزمن.

لو أن حميد الصبار، الشهير عند أصدقائه في الساحة بـ «الوالي» وبـ «Grand امعلَّم» برز لي الآن لعادت المدينة تزخر بالمباهج كأنها في مهرجان. سينزل من علياء إقامته، حيث يداني النجوم؛ ليتفقد العباد في الأرض الوطيئة، وبقامته الفارعة يخطو فتشرئب نحوه الأعناق، الأصدقاء والأعداء، وبعد هنيهة لا تسمع إلا زِه، وازهُ، وهاتِ. هذا خيالي فقط، فابن السِّباع هذا لا يحب يوم الأحد، وأنا هجرت البلاد من زمان، ويحي لن يتذكرني بعدُ أحد!

الساعة الآن تجاوزت الثانية بعد الظهر، والمطأطئون لا شك يتغذون وسيقيلون، وربما خرجوا بعد ذلك في نزهة متكلفة مع زوجاتهم إن لم ينفسوا حنقهم في مشاجرتهن،

أو في الهتاف لفرق كرة القدم الأجنبية، وأنا لا أرى حولي، لا الأحياء ولا الأموات، ما أنا فيه، أمامي وحولي كتلة من الفراغ، انتبهت متأخرًا أني جلست فيه، هو مقعدي لا الكرسي، وفنجان قهوتي، هو وقتي ورفقتي وصوتي، هو أنا أو تماهينا؛ فإن باعد بيننا ماسح أحذية، شحاذ، امرأة تولى بها العمر تطلب سيجارة، أخرى تندب حظها العاثر لما قديمًا عاشت هنا، لن تلبث أن ترانا عدنا تدانينا. أنا الآن في جلستي المركزة كقهوة إكسبريس وحدي، لا شارب، لا عابر، أمسك الساحة من رأسها أولًا، لأعود أقبضها من تلابيبها وأخضها، أهزها، لأحييها كي تفيق ربما من غيبوبتها، عساها تستعيد زمانها، فلا أتحصل من كل تعنيفي سوى على هباء، إنني أمسك بقبضتي الفراغ ونثار غبار وهواء. في لحظة توقفت حواسي كلها، لا أسمع، لا أشم، لا أرى، خارجي لم يَعُد مني، داخلي فاض فوقي، بينهما إحساسي وقواي انفلتا من عقالهما وتركانني، لا أتذكر كم، جالسًا لا أقوى على النهوض، متحفزًا حد الجنون وفي آن مستسلم لكتلة الفراغ مني، أمامي، حولي، الفضاء الوحيد المتاح لي كي أعبر مني إليَّ؛ أي إلى لا أحد، ولا شيء، وشمس ربيعية تضغط بقوة على الأسفلت بينما الفصل خريف؛ أي خريف هذا؟!

٢

اقتنعت أخيرًا بأن الإحساس بالفراغ جزء من أوهامي المتراكمة، ومن واجبي على نفسي أن أزحزح ثبات الأشياء، وألا أتوقف خاصة في منتصف طريق أنشد فيها أكثر إلى ما مضى وانقضى، وأعترف بأن فكرة كهذه زاحمتها عشرات الأفكار والخواطر التي يبدو أنني لا أتحكم في مسارها ونموها الصاعق كوَرم كاسح، وهذا ما يجعل أقوالي خاضعة لنسبية قصوى، وليلتزم القارئ معي أكبر قدر من الصبر والحذر؛ لأنني هكذا لا أكف أذهب وأجيء.

الآن، لا مناص من الذهاب أو سيحدث شيء في عقلي لا أتوقعه، والحل أن أنهض. نسيت أن أذكر بأني نسيت جوعي، أجَّلت غذائي وفي معدتي فراغ شاسع، وفجأة قررت أن أتوجه إلى حي المعاريف، رغم أن عقرب الساعة ذاهب نحو الثالثة. هذا حي أوروبي سابقًا، بمعنى أن ساكنته تكوَّنت من الإسبان والبرتغال، وبعض الطليان، والتحق بهم المغاربة تباعًا ثم اجتاحوه ليُلحقوا به بداوة ماحقة. بناياته الأصلية فيلَّات صغيرة تسوِّرها سياجات نباتات، قرنفل وزنابق وياسمين، مع عمارات محدودة بطابقَين، حسنة التبييض، ذات شرفات مزينة بأصص. في المعاريف كنيسة، وقاعة سينما، ومطاعم

وحانات لهذه الجالية التي عرفت كيف تتآلف وتعيش ببساطة الفقراء وبهجة السعداء، أيضًا. وقد تعايش معها المسلمون بيسر؛ لأنها لم تستعمرهم، ولا شروط حياتها المادية أعلى منهم بكثير، اللهم ما تختص به من ذوق في معيش وسلوك، فيما الأوروبيون الأثرياء والمتميزون أقاموا في أحياء مختلفة انفردوا بها تقريبًا. لذا سهل على المغاربة أن يقدِّموا لهذا الحي الجميل والهادئ ويسكنوا فيه واجدين، وقد بدأ أهله الأُول يعودون إلى ديارهم الأصلية، شققًا تئويهم بأثمنة مناسبة، أحيانًا زهيدة.

من بينهم صديقاي الحميمان الراحلان: الشاعر الرومانسي الثوري أحمد الجوماري، والقاصُّ الروائي محمد زفزاف الشهير بيننا بالكاتب الكبير. جاء الأول في نهاية الستينيات من مسقط رأسه بالحي المحمدي فسكن المعاريف، وقريبًا منه كان يعلِّم في مدرسة إعدادية، والثاني مثله في وقت قريب، قدِم من الرباط بعد أن تم تعيينه للتدريس بالإعدادي، فما وجد أفضل من هذا الحي لسكناه، حيث أقاما كلاهما العمر كله. هل لي أن أنسى القاصَّ البيضاوي العريق إدريس الخوري، الشهير بسيدي حبيبي، نزيل زنقة فوريز، منه إلى السماء، في غرفة احتفلت بالحداثة والطلائعية قبل أن تبتذل جزافًا «عند كل من هب ودب»، كان قبلهما، هو والبشير جمكار، يظللهم جميعًا بجناحيه النسر، متعدد المواهب، أحمد صبري ليبسط عنوة سلطة درب غلف على أحياء كازا قاطبة. قلت لو أني أقصد المعاريف الآن، أبدأ بالجوماري لوجدته في الجولة ما قبل الأخيرة في مقصف البرطقيزي «أريناس»، وسيستقبلني منشرحًا، عيناه تبسمان خلف نظارتيه الخضراوين، وخصلة من شعره تتهدل على جبينه العريض، وسيتعجب كالعادة حين يراني مقبلًا؛ لينتقل إلى الترحيب، فما يلبث أن يشرد تاركًا أصابعه تدندن بموشحه الأندلسي: «فيك كل ما أرى حسن ...»، وفي الباحة شمس مرحة، تتقطع عليها ظلال بقية برتغاليين في النفس قبل الأخير. وأقصد بعده زفزاف، يفضل في هذه الساعة أن يجلس في تيراس مقهى الزيادي، يضع جسده النحيل على كرسي ويطلب كوكاكولا؛ فهو ينبذ القهوة، ويسترسل في تمسيد لحيته المرسلة تحت أشعة دافئة، يتمنى ألا يزعجه الغرباء، منهم معلمون كثر، ومتطفلون من صغار الكتبة؛ فإن ألحوا رفع عينيه إلى السماء، مردِّدًا لازمته الشهيرة كوَلي صالح: «الله كبير». أما ابا ادريس، فسأجده مادًّا رجليه الطويلتين في تيراس مقهى «لبريس» ينفخ سجائر كازا سبور تباعًا، وهو ينظر إلى «المروك» عابرين، ويوجه جمكار إلى أقصر السبل لكتابة القصة القصيرة، فيما أصوات المراهنين ومدمني «الأبرتيف» تتعالى من الداخل، والنادل مبارك تتخاطفه الطلبات، وصبري ما يفتأ يرسم المخططات الاستراتيجية لنهضة الكرة المغربية.

أجمع وقفتي بحماس؛ فها أنا أقرر أخيرًا التخلص من عجزي، ووقف الغرق في لجة الفراغ ودوائره، أخشى أن تتسع أمامي فتفلت من تحكمي؛ أوه، هذه مكابرة، فهل أتحكم في شيء بعدُ اللهم أن أتوهم أني أفعل. دليلي يحضر كبداهة، يتحداني هو والساحة المقفرة إلا من جدثي الطافي فوق أديمها المترجرج في كتلة الفراغ الصماء، أنا فيها وخارجها وقاب قوسين من الزوال. دليلي يخرج لي لسانه ضاحكًا عليَّ، ساخرًا من مشاريعي، مستخفًّا بكل اسم وذكرى بين زمان ومكان، وينطق اللسان، يصرخ في سمعي العيي: أوَأنت مصرٌّ على حلم اليقظة؟ أوَلا تستفيق لحقيقة ما جرى ويجري وتنبذ حديث الحنين؟ كفى، عن أي جوماري تتحدث، لمَ تنبش قبره وهو الذي رحل عن عالمك منذ سنة ١٩٩٥م؛ ولذا انقطع غناء الموشح في المعاريف ورحل عنها كل طير بعد اجتثاث آخر شجرة. وزفزاف، ألم تكن إلى جواره في المستشفى الباريسي وهو ييأس من آخر «محاولة عيش» ليلفظ أنفاسه في «مصحة المنبع» البيضاوية، وعلى رأسه الناقد الورع إدريس الناقوري يتلو: ﴿يَا أَيَّتُهَا النَّفْسُ الْمُطْمَئِنَّةُ * ارْجِعِي إِلَى رَبِّكِ رَاضِيَةً مَرْضِيَّةً * فَادْخُلِي فِي عِبَادِي﴾؛ ولذا فأطفال زنقة «المون بلون» صاروا يتامى ونساؤها ثكالى يا ولدي، ولا أحد بعده يهب المهابة في الحي، والشرفات كالحات بواكي. أما الخوري، أيها العصي على الموت، الشقي بقوة التذكر، أفِق، فهو رحل إلى الرباط منذ دهر ليكسب رزقه بين الكلمات، وبين «العلم» و«الأوسيون» يصطاد بعض الحكايات، ثمل بها، يشربها في قدح الأيام، فاسأل بعده أين الليالي اللواتي ...

لا بأس، قررت أن أمضي إلى زنقة الأمير عبد القادر، سأنشغل هناك إلى مقدم المساء بكتابة مقال أو قصة للعدد القادم من جريدة «المحرر»، سيفرح بها مصطفى القرشاوي، وعبد الله بوهلال سيتقن إخراجها، والشيخي يَعُد رصاص حروفها، و... وإذ أعزم على مناداة تاكسي لينقلني إلى حي «الباطوار» الشهير ينبت كأنما من تحت الأرض أمامي الصحفي النِّحرير عمي حسن العلوي فأعجب منه، أولًا، وأطلب منه، ثانيًا، أن يرافقني إلى الجريدة وشرحت له غرضي؛ فارتدت منه نظرة هلوع، وقبل أن يولِّي الأدبار يطلب لي الستر؛ هزني من ذراعيَّ و«جعر» في مسمعي: كفَّ عن أحلام اليقظة، ماذا؟ القرشاوي؟! بوهلال؟! «المحرر»؟! واطلب بن بركة أيضًا! فشكرته أن نبهني وقلت لا بأس، اترك هؤلاء سأذهب لأعود عمر بن جلون فهو من أسبوع لم يحضر إلى الجريدة، والنضال والافتتاحية بدونه لا جمر لها، ازداد عمي حسن بُهوتًا فيما زدت إصرارًا على الذهاب إلى شارع «كاميل دي مولان» ولم يعنني في شيء أن البيت صار عمارة، ودم عمر

الذي ظننناه تكبد إلى الأبد فوق أرض محطة البنزين حيث اغتاله الجبناء زال، فرُحت من خطو إلى خطوة أقتفي ككلب أثره.

قبل أن أنفذ مشروعي وقف عليَّ رجل خلته بلا ملامح، كأنما سحنته قناع. مدَّ لي ورقة عليها خطوط؛ فصرفته عددته متسولًا، ربما أصبح نصف البلاد يتسول علنًا وسرًّا؛ لكنه أصر يقرب مني ورقته بوجه جهم ووقفة صلبة، اقتربت وقرأت الآتي: «السيد أ.م، بلا سلام، ننبهك إلى ضرورة التزام السلم الاجتماعي، والكف عن النبش في القبور، ونحيطك علمًا أن لجنة الإنصاف والإنصات والمصالحة المسلحة قامت بواجبها أحسن قيام، واشترت من مناضليك تاريخهم، كما اشترى الله من المؤمنين أنفسهم، وهم اليوم من الحامدين الشاكرين؛ فلم لا تقتدي بهذا السلف الصالح وتريح نفسك والعالمين من هذا الوسواس القهري؛ ألا اعلم أنه آخر تنبيه، أو نتخذ اللازم الذي لا تعرف، ومن أعذر فقد أنذر، حرر في الرباط ...»

اختفى عديم الملامح ودست على ورقته بقرف وأنا أقوم من جديد لأقصد حي بورغون؛ حيث سيكون أحمد المجاطي قد أنهى مشية الظهيرة وأتبعها بما تيسر من الرحيق، قبل أن يتغذى بشهية نادرة في انتظار أشهى الليالي وأجمل الشعر، وكالمهلوس صرت أهذي: الشعر، الشعر، أين الشعر؟ رباه أين الشعر؟ صدفة، وفي غير وقته، مر صديقي الأستاذ محمد القماص، هو من قيدومي الساحة، وكان قد سكنته وقتًا لوثة الشعر؛ فقلت له جابك الله، تعال رافقني إلى صاحبي المجاطي، إنني وحيد جدًّا في يوم الأحد هذا أخاي. رغم عجلته وضع يده على جبيني وواساني في الحين، أخاي أنت محموم، خصك ترتاح، وزاد وهو يتباعد، اسمع غدًا سأذهب إلى الرباط ونيابة عنك سأزور قبر صديقك المرحوم المجاطي، أنت الذي سرت في جنازته منتصف شهر أكتوبر ١٩٩٥م، وبالأمارة تهيَّب كل الشعراء دونه أن يؤبِّنوه ففعلت!

ساحة مرس السلطان تتعدى ساعتها الثالثة، وإلى جانبي انضم شخص غريب الأطوار يقف، يجلس، يقف، ما انفك ينظر إليَّ وهو يسأل: هل نذهب أم نبقى، إلى متى، إلى؟ مرت امرأة كانت فاتنة الستينيات، ومن فمها الأدرد يسيل لعاب، تنورتها ممزقة ورجلاها حافيتان، وكل من يقابلها من ديناصورات المدينة ينفحها؛ فتعود تتصدق على أول عابر وهي تردد بشجن مقطعًا أغنية إديث بياف: Non rien de rien; Non je ne regrette rien! بعدها أحسست بجوع حادٍّ، وأيقنت أخيرًا ألا مكان ألوذ به إلا ٧ زنقة جنيف، حيث بيت أهلي، ولا إنسان بقي لي في هذه المدينة إلا خديجة أمي، وحدها تداري

شهيواتي ونزواتي، مثل أم بوهلال تمامًا، أوه، وبينئذٍ سألني الشخص الذي بجانبي، ها، هل قررت، هيا بنا، فسِرنا معا، وقبل أن نعبر شارع مصطفى المعاني باتجاه ساحة أوروبا قرب بيتنا ها هو صديقنا المهيب عبد الجليل بحدو يتوقف فجأة بسيارته ويعرض علينا الركوب فشكرته وزدت: هائل، أنت ستتغذى معي عند أمي، أعرف أنك تحب الجلبانة بالقوق، فاربدَّ وجهه في الحين وتلعثم: ولكن يا زعيم، أنسيت أننا دفنَّا الوالدة في مقبرة الرحمة سنة ...؟! عندها صرخت من قبر المجاطي:

«ظمئنا والردى فيك فأين نموت يا عمة»!

الرباط في ٢٠/١١/٢٠٠٨م

المحطة رقم ٢٠

الخط الرابط بين القلب ومحمد زفزاف[١]

كيفما كان الحال فالموت فاجعة، وإن وجدت من الناس من يحوِّل مناسبته إلى تأسٍّ مفتعل، أو استعراض أحزان ملفقة أو تعاطف مرتجل مع رموز لا يملك وإياها أي صلة حقيقية. هناك من يتخذ من الموت مناسبة لتأثيم الذات وتبرئة النفس من تُهم مصطنعة إزاء الموتى، كأنما يرغب في استدراك محبتهم التي ضاعت إلى الأبد. هناك آخرون يحترفون التشييع، أي السير في الجنازات، واللغو فيها وهم أجدر من غيرهم بالشفقة، خاصة حين يحرصون على أن تلتقط لهم التلفزة «صورًا تذكارية» إلى جانب هذا أو ذاك.

ليس من السهل أن تكتب عن الراحلين، إنما من الأفضل أن تخرس إذا كنت ستغتابهم أو تقضُّ مضجعهم في العالم الآخر، خاصة إذا كان لحمهم طريًّا تحت التراب. وإذ أجازف بكتابة شيء عن الفقيد القاصِّ والروائي الكبير محمد زفزاف (تُوفي بتاريخ ٧ يوليوز ٢٠٠١م بالدار البيضاء، إثر مرض عضال) فمن أجل التخفيف من فاجعة موته، ولمصارعة هذا الموت عنادًا، ولأن زفزاف من رفاق العمر والحياة والأدب، والدار البيضاء على الخصوص وفيها، فيا لبؤس الصغار، ويا لخسارة الكبار.

---

[١] نُشر هذا النص مع مجموعة أعمال في كتاب «محمد زفزاف، الكاتب الكبير»، منشورات رابطة أدباء المغرب، الرباط، ٢٠٠٣م، وتمت مراجعته وتنقيحه بباريس خلال شهر أيار (مايو) ٢٠٠٩م.

يمتد خط المترو رقم ٦ في باريس، الممتد من محطة Etoile في الدائرة الثامنة، عند قوس النصر الشهير، إلى محطة Nation في الدائرة الثانية عشرة. بإمكانك أن تقول إن المحطة الأخيرة هي نقطة الانطلاق والأولى المذكورة نهايتها، وذلك حسب موقع الراكب والاتجاه الذي يقصد. وعلى كلٍّ؛ فبالنسبة لخط المترو هناك دائمًا نهاية Terminus ما يسمح بتصور وجود أمل ينجدك من نهاية حتمية. لم يكن هذا الخط يعني بالنسبة إليَّ شيئًا كثيرًا ولا قليلًا من قبل؛ أي في السنوات الطويلة المديدة التي عشتها بين باريس وضاحيتها الفارهة sur Seine-Neuilly، طالبًا وباحثًا جامعيًّا، وكاتبًا دائمًا. بلى، أذكر هذا الخط في محطات محددة منه، منها محطة Passy في مطلع الثمانينيات لأصعد منها إلى المدرسة العليا للعلوم الاجتماعية، هناك في الحلقة الدراسية لجيرار جونيت، جاك لينار، أو لألتقي غجرية فتنتني تسكن هذا الحي. ثم محطة Edgar Quinet تخرج منها إلى شرقي حي مونبرناس، على خطوات من المقبرة التي تضم رفات كبار الأدباء (سارتر، مثلًا). ثمة نقاط أخرى لم تكن تعنيني أو أصل إليها بالسيارة؛ لألتقط البشر الطارئ على باريس، يحتاج دائمًا لمن يجلبه ويوصله إلى المطار كأنما المدينة بلا حافلات ولا قطارات، كأنما!

في زمن لاحق عدت إلى المغرب، ثم عدت إلى باريس، ثم عدت إلى بين الضفتين، ثم ها أنا ذا لا أعرف أين، ألفيتني أربط علاقة أو أستأنفها بطريقة خاصة مع المترو رقم ٦: فهو أقرب خط من حيث أقيم قرب Champ de mars بالدائرة السابعة. تعجبني في هذا الخط محطة Picquet La Motte-Grenelle في هذا الخط، فهي، بتسمية الفرنسيين صحن دائر Plaque tournante تنقلك تقريبًا إلى كل دوائر باريس وشعابها ومنها إلى ضواحيها، وإلى المطارات والموانئ، وإلى العالم أجمع ... لمَ لا إلى العالم الآخر أيضًا؟! رغم هذه الميزات؛ فإن علاقتي بخط المترو هذا لم تتوطد وتغدو حميمية، معقدة، أو «إشكالية» كما يقول «الأولاد» هذه الأيام، إلا بسببه، ومن أجله، ولذاته، وبدونه يفقد معناه، كل معناه تقريبًا. أعني أن هذا الخط ينقلني، أقصد كان ينقلني إلى محمد زفزاف. قبل ذلك أحتاج إلى تقديم بعض التفاصيل والممهدات، منها:

- في صيف ٢٠٠٠م وصل زفزاف إلى باريس للمرة الثالثة لإجراء فحوص طبية حول الورم الخبيث الذي أصاب فكه. في زيارته الأولى عاد بنتيجة قال عنها إنه إيجابية، وأثارت جدلًا في وقتها لأنها، حسب الصحافة، كذبت تشخيصًا سابقًا لأطباء مغاربة. لكن، في الزيارة الثانية، وبعد فحص تأكد أن الورم خبيث لا

مفترض، فصدق التشخيص المغربي. لم يكن يبدي خلال زيارتي له إلى شقته الصغيرة بحي المعاريف بالدار البيضاء، وكان الداء قد استحكم، أي قلق زائد، أجده صورة على الأقل رخي البال، غير عابئ، وهو يردد لازمته بأن «هناك موت واحد» وأن «الله كبير» ويواصل حياته كما يشاء ويستطيع. أما الزيارة الثالثة (الأخيرة) فقد كانت مباغتة له وحتمية، فقد «زاد عليه الحال» بالعبارة العامية، ورغم ذلك وصل إلى باريس بثقة، تكاد تقول إنه جاء لإجراء فحوص عادية كالمترفين، أو للسياحة.

- معلوم أن فقيد الأدب المغربي حظي برعاية ملكية، تضمن نفقات العلاج وتوابعها. هكذا، فبعد عبور قصير بالمستشفى صارت إقامته بأحد فنادق حي الأوبرا؛ حيث كان يستقبل في البهو المريح زواره ببشاشة وترحاب رصين، كعادته، وهو محتفٍ بنفسه ببساطة وتواضع، ومكتفٍ، أيضًا، بما لديه وليس عنده؛ أجل فرغم ظرفه وتبسطه في المجالس عرفته متحفظًا ومهذبًا، منصتًا أكثر منه متكلمًا، مشتعل الذكاء بهدوء، نَزاعًا إلى العزلة، والبعد، كما يقول، عن «صداع المروك» الذين صدعوه كثيرًا حقًّا بحي المعاريف، أرادوا شراء صحبته عسفًا، أو ركوب كتفيه؛ ليصبحوا كتَّابًا فيما هو يعلم جيدًا أنهم بلا مواهب، ومع ذلك كان له حدب على هؤلاء، وقدم لغير واحد قصصه أو كلامه، وما نفعهم ذلك في أن يستمروا.

لم يكن السي محمد قلقًا أكثر من اللازم خلال إقامته بالفندق، في انتظار ظهور نتائج بعض الفحوص. في مطلع الصيف، ثم والصيف يوشك أن ينتهي، سيقرر البروفيسور «سودان» الاختصاصي مسئول جناح أمراض الأنف والحنجرة والفم، بمستشفى Salpétrière-La Pitié ماذا سيفعل مع الحالة (الورم المتطور)، وهل من إمكانية لعملية جراحية، أملًا، ولأي غاية.

- بين انتظارين ذهبت إلى المغرب وعدت إلى المغرب لألتقي به في بهو الفندق، كما ألفت، الشاب الشهم، والقاص الواعد محمد المزديوي، الذي أشهد أنه بذل كثيرًا من وقته وجهده وصبره مرافقًا ومعتنيًا بوفاء بالراحل أسابيع صعبة جدًّا. ولقد دعوت الراحل، ومن معه، مساء يومه إلى جلسة خارج الفندق لأسرِّي عنه، فلم تطُل لتعب ألمَّ به. أحسست به للمرة الأولى، يكابر ويداري مخاوفه، وهو وما كان أبدًا شكاءً، بكاءً، له من دهره ما تعوَّدا، ويعلن لي معتذرًا انشغاله بأمور

كتابية متفرقة ولم يكن وقتها قد ضيع القدرة على الكلام، وما عرفناه مهدارًا أو محبًّا للخوض في أي كلام؛ اقتناع سرى على عدة أمور من حياته.

- دخل زفزاف إلى المستشفى بكيفية قطعية في نهاية سبتمبر ٢٠٠٠م، بعد أن اتُّخذ قرار إجراء العملية الجراحية بتفاؤل، كما أكد ذلك البروفيسور سودان، الذي كان يظهر قليلًا جدًّا، ويختفي كثيرًا، مثل «ثعلب» الكاتب، في قصته الشهيرة. نزل المريض في الجزء الجنوبي من المستشفى المذكور الشاسع جدًّا، في البنايات الجنوبية، الحديثة الطراز بناء ومعدات، وفي جناح الاختصاص المعلوم حجِزت له غرفة في الطابق الثالث (غ ٣٠٤)، تقع على يمين المبنى، قبالتها سطيحة واسعة يفصلها عن الغرفة نصف جدار زجاجي يسمح بدخول كثير من الضوء، إذا صحا الجو، طبعًا.

لننقطع مؤقتًا عن تلك التفاصيل، ولنعُد إلى حكاية الخط رقم ٦. سأطلب من جميع الأصحاب والمعارف في باريس، والذين ينزلون بها متعجلين أن يسمُّوا هذا اتجاه المترو هذا La ligne de Zezaf، وما ذلك ببساطة إلا لأنك إن رغبت في زيارته لا بد أن تنزل في محطة Chevaleret من هذا الخط، تقع في الترتيب العشرين من محطاته البالغة ٢٧ محطة، إن أنت قصدتها من منطلق Etoile؛ فإن جئتها من Nation صارت السابعة.

تهبط بالمصعد الآلي، لتعبر الشارع، وبعد خطوات تلِج أحد الأبواب الخلفية لمستشفى، وبعد مائتَي متر مشحونة بالقلق في نفسك قبل أن تمتطي المصعد إلى الطابق الثاني، منه تخرج لتلوي يسارًا فيسارًا؛ فتصل إلى الغرفة ٣٠٤ الموصد بابها دائمًا، على الأغلب. بحذر تضع يدك على قبضة الباب، تديرها وتدفع قامتك متلصصًا، تطل على مدخل ضيق في زاوية منه مغسلة التعقيم. في الخطوة التالية، متوازية مع رأسك إن أطل أو اشرأب جهة اليمين، يراك وهو مسجًّى على السرير، وتراه أنت ولا تراه، أي كما عرفته وعرفك. ثم تنكر وتستنكر وأنت غاضب وحزين أنه هو أيضًا، وتلك صورة من صور عديدة تحتاج إلى تفاصيل.

ستكون محظوظًا لو وجدت المزديوي؛ إذ سيخفف عنك وقع ما ترى، تسبق ابتسامته المريض لاستقبالك، وسيطمئنك في الحين أن كل شيء على ما يرام، وترى الكاتب الكبير تنحني عليه مقبِّلًا جبينه، فيمد إليك ذراعَين نحيلتين كالعود، بينا لحيته تحت وجهٍ صفُر كثيرًا.

ما تزال مسدلة. لقد أجريت العملية قبل أيام، وهو لم يعُد قادرًا على الكلام بسبب إحدى تبعاتها؛ لذا يدعوك بإشارة إلى الجلوس إما على كرسي إلى جانبه، أو على حافة السرير. تراه يتحامل على نفسه ليقيم ظهره، وتشرع أنت في إغداق الإعجاب والدعاء بالعافية المسترجعة قريبًا إن شاء الله، وفي نقل تحياتٍ من المغرب لم يرسلها أحد، وتدخل المرضة لشأن طبي؛ فتنصرف واعدًا أنك لن تتأخر في زيارة، ستأتي غدًا، وبعد غد، و...

في رصيف مقهى Le pièrrot وأنت واقف قبالة محطة «لاموت بيكي غرنيل». متى كان هذا؟ في الغداة أم بعد أسبوع من الزيارة؟ وستعرف أن هذا الارتباك لن يفارقك، وسيستمر معك بعد كل ما حصل، أي بعد فوات الأوان. أنت تمتعض من الرائحة المعقمة في ردهات المستشفيات والعيادات، تعادل الرائحة لديك الموت مباشرة ... لكن هذا لا يكفي، تدريجيًّا سيتضخم الخط رقم ٦ ليتحول إلى شريان يسري في جسدك بكامله. دلفت إلى الغرفة رقم ٣٠٤ للمرة الثالثة والخامسة، ثم ذهبت إلى الرباط وعدت ودفعت الباب ساعة العصر، الممرضات غائبات، والسكون سابح في الردهات، واشرأب عنقك لتراه متكئًا على جنب في وضع الجنين داخل الرحم؛ فأردت أنت تسحب دخولك مشفقًا على نوم طفولي، لكنه همهم أو غمغم يشعرك أنه صاحٍ، به بقية من حياة، فابقَ معه لا ترحل، قبل أن يرحل، بل رأيته يلمُّ بقية أطراف ليوسع لك مكانًا إلى جانبه، وبيده مصحف صغير، وفي عينَيه لمعت دمعتان. غرقنا في الصمت أم في دمع آخر طفر، وحين أوشكت أستأذن للانصراف سحب ورقة وخط عليها خطوطًا وحروفًا قدمها لي، وهي ما تزال بحوزتي ككنز. لم يكن بيننا حرج فيما قد يحتاج إليه، وما كانت له حاجة إلا فيما أراد البعض، على ما علمت، أن يبتزه مستغلًّا فيه ضعف المريض، وتعلقه كالغريق بأي طوق للنجاة، وهو هلاك. لا أحد يرحمك حيًّا أو على حافة الموت إلا من رحم ربك، يا لهؤلاء الغلاة، يا لهؤلاء المتوحشين، المفترسين! بعد طول تأمل للورقة التي قدَّم لي نجحت في تفكيك حروفها ورسومها، تشبه خطوطًا بدائية على منحوتة على صخر قديم؛ فهالني ما قرأت أو فهمت منها، وغادرته وأنا شبه يائس من حالته. لم يفزعني أن يطلب مبلغًا ماليًّا كبيرًا، وإنما يطلبه لكي يتمكن من القدوم من الدار البيضاء إلى باريس، فيما هو ممدد بالغرفة رقم ٣٠٤ بمستشفى «بتيي سالبتريير» الشهير!

ربما عشية أعياد الميلاد، وباريس متبرجة بزينتها واحتفالاتها، أو عقب ذلك؛ لكني متأكد أن علاقتي بالخط رقم ٦، والمحطة ٢٠ فيه، وصلت عندئذٍ إلى ذروة توترها. أصل من مطار أورلي، وقبل التفرغ لأي شأن أقصده الأول محملًا قبل ذلك بطمأنة

سمعتها من أصحاب وطيبين مقيمين هنا؛ لكني حين ولجت غرفته في التاريخ المذكور كدت أتراجع، لولا أن نظراته تتشبث بي للبقاء، يدعوني للاقتراب منه. إنك لا تتمنى الموت لعزيز، ولكني دعوت أن يلطف الله به وأنا أراه ينزف الدم، وغيره، من كل أطراف جسمه، ومن فيه، وثقب في حنجرته خاصة، وعيناه تبدوان كالمنقلبتين أو الناعستين فيما هما مشدودتان باستماتة لا يحيط بهما، أي بفضاء الغرفة، أظن ببصمة ضوء طبعتها شمس تحاول أن تتنفس بصعوبة من بين السحب الكثيفة لتعكس سريعًا على أرضية السطيحة المقابلة للغرفة ثم ما تلبث أن تختفي، بينا يداه مطبقتان على المصحف عونه وملاذه، يشير بإحدى سبابتَيه إلى بقعة الضوء، يحاول أن يقول شيئًا بابتسامة تتشكل بعسرٍ على تقاسيم وجه صغير وشاحب، على جسد ضؤُل.

غادرت المستشفى منهارًا، متوكئًا على وهني، لا أنا قادر على البكاء، لا على الحزن، أتحسس طريقي كالأعمى، ولا أكاد أهتدي إلى المحطة العشرين Chevaleret، لا أذكر كيف ركبت المترو، ولا كيف نزلت في «لاموت بيكي». أتذكر فقط أني رغبت في أحدث شخصًا قريبًا عن هذا الوضع، وعن إحساسي، وإلى أول شجرة استندت وفتحت هاتفي النقال.

لست ممن يصدقون الخوارق والمعجزات، لكني، وقد سافرت إلى بيروت، وعرجت على باريس، وبعد يومين شعرت بما يشبه تأنيب الضمير؛ فأنا لم أزُر صاحبي، فهل أكون يئست من حاله، أم لعلي في دخيلتي قدرت ما ليس من حقي ... وما جرؤت على الزيارة إلا طالبًا من صديق مرافقتي لتوقعي الأسوأ؛ فكانت فرحتي عظيمة، ودهشتي كبيرة حين أدرت مقبض باب الغرفة إياها؛ وإذ به على نحوله المتزايد، والأنابيب التي تحيط به، يفتكُّ منها تدريجيًّا، لا بل يصرُّ على ارتداء الجاكتة وينهض تدريجيًّا، متحاملًا على نفسه لنعانق بعضنا. وبخطوته الهادئة، يمشي الهوينى كعادته ونتَّجه إلى المصعد ننزل به إلى الطابق الأرضي للمشفى، حيث المقصف، كأنه ينتقل من شقته البيضاوية بحي المعاريف إلى مقهى La presse لتناول مشروبه اليومي، ما كان يحلو لصديقه وجاره الشاعر أحمد الجوماري أن يسميه مناكفة بـ «الثامنة» وهو قياس لسائل. وإنَّا تجاذبنا أطراف الحديث، بالكلام من جانبي، واستخدام لغة الإشارة أو الجواب كتابة على الورق من طرفه، وضحكنا، ونممنا كما ينبغي، خاصة على «أبا إدريس» (القاص إدريس الخوري، رفيقه وغريمه التاريخي!) للجلسة طعم خاص به.

قلت إن دهشتي كانت كبيرة، ستزداد كبرًا بعد زيارات لاحقة، وأنا أرى فيها زفزاف يصارع قدره يومًا بيوم؛ فما رأيت أقوى ولا أشجع، في تلك الأيام الطويلة

والأسابيع الشتوية الباريسية الموحشة، بالورم الخبيث يتأكله، والغرفة الواحدة لا تتبدل، والممرضات يتنقلن كالآلات، ولا طعام ولا شراب غير كيس اصطناعي يمتد منه أنبوب بلاستيكي رفيع موصول إلى مِعًى ينقل تغذية سائلة أسابيع مديدة، وغير زيارات متقطعة لأفراد دائمًا من العابرين، والمتعجلين، الخائفين من الموت مثلي وأكثر، وعلى شاشة التلفاز تتعاقب مسلسلات بلهاء وركيكة، ومن الصعب أن تقنع حبكاتها الملفقة والمملة قاصًّا بارعًا من عيار زفزاف، والصحف تتراكم في زاوية، وأي مزاج ليقرأها، ولأي مستقبل، ومن أين القدرة على القراءة، ثم إن من بين عباد الله من هو قليل الذوق، أو ثقيل الظل. وهذا ما فهمته منه حين عدت بعد جلستنا في المقصف أرافقه إلى غرفته. وقد أصر أن أدخل من جديد؛ فأزاح أمامي كومة جرائد وسحب كتابًا أو كتابين، واحد منهما وضع على غلافه عنوان فرعي: «شعر». ثم إنه أخذ يقلب وأخيرًا طلب مني أن أبعد عنه هذا الـ «...»؛ فقلت له إن لديه ما يكفي من الهموم؛ ليترك لنا نحن مثل هذه «الهموم الجديدة»، التي هي من غرائب هذا الزمان!

أوَكان ينقصه هم؟! فقد استطاع أن يصمد في وجهه ويتحداه طويلًا؛ لأنه كان مصرًّا على العيش، وهو صاحب القصة الفريدة «محاولة عيش». كان الموت عنده هناك وهو هنا في الحياة، أقلها، رغم أنه يرى نفسه، أو لا يراها، يجدف في بحر الرحيل. ثم إن الأطباء في فرنسا خاصة، في مثل هذه الظروف، يضعون بين المرضى ومصابهم حجابًا بل حُجبًا، فهم يباعدون بينهم ومصيرهم المحتوم، واهبين المريض (الميت أحيانًا مع وقف التنفيذ) كل حقوق الأمل حتى وصاحبه أوهَى من بيت العنكبوت. بالنسبة للبروفيسور سودان كان المهم هو إجراء العملية، وبعدها المريض أصبح تحت المراقبة، وبالتعبير الطبي تبقى حالته مستقرة، تعتريها هزات. أما زفزاف فوحده كان أعرف بحاله في تطورات المرض المتوالية، وما سماه قبيل انطفاء شمعته بـ «عام من العذاب». وما كان لأحد أن يفتي في هذه الحالة خاصة أولئك الذين يبتزون حتى من هم قاب قوسين من الموت. كنت في زيارته مرة فاقتحم خلوتنا زائر من المتنطعين، وبعد عبارات سمجة من المواساة الركيكة، كأننا في مأتم، فتح حقيبة محمولة على كتفه، وأخرج منها آلة تصوير. قفزت من جلستي أسأله خطبه فرد غير عابئ أنه يريد أن يأخذ صورة تذكارية له ومعه ولنا، والرجل على ما وصفت من حالة جسدية مزرية؛ فما كان إلا أن طردته شر طردة، وبدت علامات الارتياح على زفزاف. من أسف لم أكن حاضرًا لأتصرف بالمثل وأنكى مع كاتبة عراقية تروِّج لأدبها البائر في باريس جاءت تطلب منه محاورته حول الموت، هو الذي لم يفقد الأمل في الحياة قط، وهي التي لم يكن يعنيها غير تحقيق

سبق صحفي بإبرام صفقة مع كاتب يموت؛ لتبيعها إلى جريدة سعودية كانت تقتات من مراسلاتها لها، زيادة على ابتزازها للمساعدة الفرنسية للمحتاجين، فأي خزي!

كانت إقامته في الغرفة ٣٠٤ قد طالت حقًّا، وبدأ يشتكي بتوتر واضح، لا وانعكس ذلك في ردود أفعال تجاه هيئة التمريض. وباختصار، وكمرحلة أخرى من العلاج، تم الانتقال إلى «إقامة للراحة» بالضاحية، جنوب شرقي باريس. تطلب ذلك انتظارًا طويلًا لموافقة الرباط، وضمان تسديد مسبق وتعقيدات إدارية أخرى، أمكن بعدها لزفزاف أن يُنفى إلى ضاحية تسمى Forcille، هناك قابلته، بعد وصول ملتوٍ، على عجل كي أتمكن من اللحاق بالقطار. رأيته وحيدًا جدًّا كعادته، فعلًا قضى جل حياته وحيدًا، لا يفهم لماذا جاء إلى هذا المكان ويعييه متى يغادره. في مايو تدهور وضعه فأعيد إلى المستشفى الباريسي.

بين فترة ذهابه وإيابه، ستحتفظ المحطة العشرون برمزيتها، كأنها خافت أن نتسلقها نحن المغاربة؛ ففعل بنا الدهر فعلة نكراء أخرى، يا لحظنا! كيف؟ في نهاية شهر مايو وجدتني آخذ الخط ٦ نفسه مرة ومرتين وصعدًا في مطلع يونيو؛ وذلك لزيارة مريض آخر من فصيلتنا، نحن المتعبين المدانين. كان محمد الكغاط الفنان المسرحي والباحث الجامعي القدير قد نال الرعاية الملكية، أيضًا، ونقل على عجل، بدوره، إلى باريس قصد الجراحة لورم خبيث في الدماغ. وشاءت الأقدار أن ينزل في المستشفى ذاته، وفي الطابق الثاني من مبنى إقامة الكاتب الكبير. أظن أنهما لم يتقابلا. وبرفقة المرحوم الكغاط، وأخيه الكبير، وابنته، وبعض الطلبة المغاربة المخلصين، اجتمعنا في مقصف المشفى نثرثر ونضحك وكأن الدنيا فعلًا «هانية». وعادت المحطة Chevaleret تستأنف نشاط الزوار؛ لكن في وقت وجيز أجريت العملية الجراحية للفنان المسرحي الكبير، وبدت ناجحة جدًّا. عجبًا انتقل الكغاط بعض الوقت إلى فندق بحي الأوبرا، منه ظل يتردد على المستشفى لإجراء فحوص، وهو يتابع العلاج في غرفته؛ لكن الموت لم يمهله رحمه الله. بعد انتقال الكغاط إلى الأوبرا عاد زفزاف توًّا إلى المستشفى؛ حيث لم يعُد بوسع فريق البروفيسور سودان أن يفعل شيئًا يذكر غير تقديم المهدئات، وشُرع في الاتصال مع الجهة القنصلية المغربية لترتيب إعادة المريض إلى وطنه. فعلًا، لم يكن مراد زفزاف أكثر من هذا ليستريح بقرار منه. قبل يومين من مغادرته المستشفى، وهي الزيارة الأخيرة هناك، وجدته جالسًا ينتظر ومتاعه القليل أمامه في الصاك، ينتظر مرور المسئول القنصلي، ورأيت الممرضات اللائي عاشرنه سنة كاملة يتجاوبن مع رغبته الحارة، قلن لي إن من الأفضل له أن يعود إلى بيته، إلى بلاده ليستريح هناك، على قدر الاستطاعة.

عجبًا عاد زفزاف من المستشفى الباريسي، إلى «مصحة المنبع» بالدار البيضاء، الكائنة بزنقة جنيف، خلف ساحة أوروبا، شارع الزرقطوني، أي بالضبط في الزنقة نفسها التي يوجد بها بيت عائلتي، بيت المرحوم والدي مولاي علي، وكان من أصحاب زفزاف وقرائه، وبيت المرحومة والدتي خديجة التي وافتها المنية عشية القرن الجديد، وعاد ليقضي وقتًا وجيزًا في المصحة، وفي الدار البيضاء، رغم شساعة أحلامه، وعظم آماله، فضلًا عن قوة إرادته وشجاعته في مواجهة المرض العضال الذي انتزعه منا عنوة في السابع من شهر تموز من عام ٢٠٠١م، أظن في الطابق السادس من المصحة، بالغرفة رقم ٦٢. أذكر أننا في اللحظات الأخيرة جربنا الضحك، وتذكرنا مرقص الباهية في شاطئ عين الدياب نهاية الستينيات؛ حيث أردفته خلفي بالدراجة النارية من نوع سوليكس، وتذكرنا، أيضًا، طراوة الأهداف، وكيف أردنا أن نصوغ أنفسنا ونجدد مجتمعنا بالأدب، وكان هو سباقًا، وموهوبًا، نسيجًا وحده. ما أنا متأكد منه، وأنا أرى جثمانه يوارى الثرى، في مقبرة الشهداء بالدار البيضاء، ما أحسست به هو أن جزءًا مني يرحل معه، وأني بذا صرت حيًّا نصف ميت، فلعمري أي جزء هذا الذي بقي مني، بأي جزء كتبت حقًّا هذه الكلمات، نصفيًّا صاح، في هذا الفوات.

الرحلة العراقية إلى الأحضان الملالية

إلى عبد الكريم جويطي، ونور الدين درموش
نيابة عن أهل بني ملال كافة.

كنت سأقدم على تدوين هذه الرحلة، ووصف بعض أطوارها، واعتبار رجالها، والوقوف عند أهم مراحلها، وقتًا قبل اليوم، ولا أعرف إن هي مشاغل الدهر ما أخرني، أم امتلائي العاطفي بها حدًّا غمر نفسي، وأشبع فضولي، فصرفني عنها، واجدًا تعلَّتي وعذري في أن من وما يحبه الإنسان مثواه الفؤاد، يعاش، ولغته المكابدة لا تنفع معها الكلمات ولا تغني. وكنت كلما أحسست بندم عن تقاعسي تداعت إلى ذاكرتي ألطف الصور، وأرق اللحظات، وأعذب الحوارات، وحتى التأوهات والحسرات، فأعود أستنكف منطويًا على نفسي وما حوت في شغاف الذكريات، جاعلًا منها ذخيرتي لحاضر فاتر، أحيانًا، وغدًا ربك أعلم بما منه آتٍ.

وأنا أعني أيها السادة رحلة قام بها الشاعر العراقي حميد سعيد إلى المغرب، قادمًا إليه هذه المرة، لا من وطنه العراق، ومدينته بغداد الذائعة الصيت في الآفاق، وإنما ساعيًا من عمان إلى الرباط سعي الحجيج إلى كعبة العبادة والاشتياق، حاملًا بيدٍ حقيبة المنفى، وبأخرى مصافحة الأشواق. وهي رحلة بأصول وصارت لها فروع: بدأت بالرباط، وامتدت إلى مدن غيرها، وأطراف في مملكة الله السعيدة، اجتاح النظر خلالها السهول والجبال، وديانها وتلالها، المدن العامرة، والقرى القانعة، والحقول اليانعة، كيف بالأحضان الدافئة، والوجوه المليحة، والبيوت الحاتمية بمحبتها ومآدبها السانحة. وبين هذا وذاك في قلبها لغة الضاد فوارة، بمنابع الشعر دافقة، وأزاهير البلاغة فواحة، والقلب في مجرى الهوى تاه عن قِبلته، ضيَّعه هواه!

كدت أصرف النظر عن هذا كله، وكم في العمر من جوًى احترقنا به، وكبتنا نداه. ذاك أن الحديث عن رحلة تبدأ من منفى، ولا مناص لصاحبها، إثر نهايتها، من أن يعود إلى منفاه، ليشق على النفس، فإن تلذذنا بكتابتها فهو تلذذ عذاب، وما يطيقه، والله، أحد فكيف بأولي الألباب. إلى أن وقعت عيني على فوق ما يطاق. كلام صفع النفس، وكذب الظن، وهيج حالًا أردناه مع الدنيا والبشر إلى وصال وحسن اتصال، ما كان عذبًا استحال كدرًا، غيضه زور، وفيضه فجور، وكثير منه منساق في أيامنا السود هذه، يقود بعد الويل والثبور، إلى وبال وسوء مآل.

فحواه أن جريدة في الماء العربي الآخر تسمى بلاد قطر، حديثة الصدور باسم «العرب» نشرت مراسلة من الرباط عن جانب من الرحلة التي ذكرنا وتقاعست عن الكتابة عنها للسبب المذكور، (بتاريخ ١٣/٠٣/٢٠٠٩م) اطلعت عليها متأخرًا عن طريق قارئ غيور، وجدت في ديباجتها ممهورًا بتوقيع «سعيدة شريف» أن الشاعر حسن نجمي قال في مدخل الأمسية المنظمة للضيف العراقي بالمكتبة الوطنية بالرباط بأنها لـ «رد الجميل الذي أسداه الشاعر للكتَّاب والشعراء أيام عزته وسلطته مع الرئيس صدام حسين» (ما لم ينبس الرجل ببنت شفة منه، وهو حي يرزق!) لتمضي قائلة لا فُض فوها: «لم يحضر أمسية الشاعر العراقي حميد سعيد التي خلقت سؤالًا كبيرًا عن جدواها وأهدافها لدى العديد من المثقفين والمتتبعين للشأن الثقافي بالمغرب، إلا عدد قليل من الكتاب والشعراء المغاربة، وهم ما تبقى من دعاة القومية العربية» (كذا). وبدل الرد بأي صيغة على هذا الـ (...) أجزل الشكر للمدعوة إياها مرتين: الأولى للتكريم الذي خصت به الكتَّاب والشعراء المغاربة، بالأحرى «ما تبقى ...» لا أراهم سيتضايقون من نيابتي عنهم في هذه المناسبة، وإن كنت لا أصادر حقهم الخاص في الرد على ذاك الـ (...)؛ والثانية، لأنها حركت قريحتي، وذكرتني أن الصمت أحيانًا جبن يفوق خزي الباطل، وحرام أن نسكت عن جمال العالم وحسن خصال المغاربة وبهاء أرضهم، بينا ثمة من يمشي بين الناس بالبغضاء والإفك؛ يشهد الله أن كثيرًا من هذا الجمال بان في هذه الرحلة.

... فإن أبا بادية لما حط طائرته بمطار محمد الخامس سرعان ما نسي أمر حقيبته لم يجدها في انتظاره كما وجدنا بأحضان مفتوحة، وانشغل رأسًا بالالتفات إلى اليمين جهة تراب أولاد حريز، مذ تركها وهي في حرز حريز، تحسبه يتشمم أرض «التيرس» وأنفه شمم. قلت له رويدك يا ابن العرب سنعود إلى بلاد الجود، أما الآن فطريقنا إلى

الرباط، كان أدركها قبلنا قلبه الخفاق بالأشواق، سرنا إليها، و«سبحان الذي أسرى بعبده ليلًا» فسُري عنه وهو يراها بعد طول فراق، مسربلة بخدر النعاس، وشوارعها في سرى السكينة والإيناس. لم أدخل أحلامه تلك الليلة؛ لكن ما إن انبلج الصبح إلا ونحن قدم واحدة من شروقها إلى غروبها، يطوف على مرابع الأحبة والخلان، الموجود منهم ومن كان، حتى على الطلل المحيل في شالة المهيبة نفضنا عنه غبار النسيان. أما ما تلا ذلك فـ «يا ليلة بعدها عيناي لم تنم!»

وإن من طريف ما تشهده مع المسافر أنك تعيد اكتشاف المكان، كأنه في جغرافية نائية، بينما أنت فيه كل آن. ذاك ما ذكرني به أبو بادية، وحرمه السيدة أم مصعب، حين استيقظا في يومهما التالي متلهفَين، تحسبهما كوكب المريخ يطلبان، وما هما إلا حي أكدال يبغيان، فيه فاكهة الشباب الذي عاشاه برباط السبعينيات ومن اجتمع في مجلسهما من إنس نادر كالمرجان، لن يكذب هذا إلا باغٍ أو سليل بهتان. ورغم أني أخبرتهما أن الأرض غير الأرض، والديار تبدلت، وأخلاق القوم ابتذلت، وستائر المحبة والكرم أسدلت، والدنيا إلى خصام، وقلوب الخلق مع الدرهم وحده على وئام، وما نعيشه اليوم من غرائب الأيام؛ رغم كل هذا القيل وتعداد الآثام، نزلنا بأكدال نزول الحجاج الميامين، أراهما ينظران إلى كل شيء متعجبين، في زنقة سبو حيث قطنا يمشيان متلهفين، فقلت لا سبيل لي لهجر العجب إلا أن أنظر مثلهما بعين القلب، وأنسى ما تعيشه الرباط وسواها من سلب ونهب؛ ففي روح المسافر دائمًا مستقر بعد التعب، تنيخ بها راحلته، ويزول عنه كل كرب، وكذلك كان، وفي رباط الفتح أنت لا تعدم من يمد الخوان للإخوان، يزينه راح وريحان، تذوق فيه السلوى، وتشرب السلوان، ﴿فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ﴾.

وجاء الموعد المنظور بالمكتبة الوطنية العامرة ليلتقي الشاعر حميد سعيد بجمهوره ومحبيه، بالرعاية الزاهية لوزارة الثقافة؛ حيث كان نساء ورجال الأدب والفكر متحفزين للعناق، وسماع الشعر من أصيل العراق، أمس حجوا إليه زرافات ووحدانًا، واليوم أصابها الشؤم، يعشش فيه البوم، وموقعه أبعد من جزر الواق واق. الشعر الجميل مشربهم، وحسن الإنصات ديدنهم، ولطيف التذوق معدنهم، جاءهم شاعر عربي من عاصمة الرشيد، أسمعهم كل طريف وتليد، ولقد تساقيناها عذابًا كئوس الشعر اللذيذ، وما انتهينا بعد وقت مديد إلا كالنخل وقوفًا وإجلالًا للشاعر الفذيذ، ذكَّرنا بصحيح القريض، وأنا عربًا وأمازيغ، جئنا إلى حضرة الدوحة العربية بقض وقضيض، لا يضيرنا أن تنوح البواكي أنا ما تبقى من دعاة (كذا)، فالسادة دومًا قلة، لا يهابون الضواري

فكيف بالطير المريض، خاصة ممن جناحه مهيض؟ لم نكد نترك شعر الكلم إلا وداهمنا ليل من ضفافه السنا يفيض، إلى سحره دلفنا، وفي شغافه همنا، رافقنا كل خبير وشريد، ونمنا، على جبين الشاعر غفت نجمة ظلت تحرسه طول مقامه، نجمة الحب المغربي، رأيتها ذاك الصباح، تقود ريح الصبا في يومنا الوليد.

قبل أن يحضر حميد سعيد إلى الرباط كان الشاعر حسن نجمي، وهو اليوم يتحمل بشجاعة وحنكة مسئولية مديرية الكتاب والخزانات بوزارة الثقافة، أحرص ما يكون على أن تتم الزيارة على أحسن وجه إقامة وبرنامجًا ولقاءات، وقد بذل لأجل ذلك وغيره أفضل جهد جازاه الله عنه كل خير، فـ «حمر» وجه الشعر ووجهنا جميعًا، وحرص على ألا يبقى الضيف جليس أهل ما يسمى بالمركز، المدن الكبرى، باتت في الحقيقة تجافي الثقافة، وقال، ونحن نرتب برنامج الزيارة ألا بد من بني ملال، وهو ما صادف هوًى في نفسي، فقد صار لي فيها منذ وقت أهل وأحبة، وليس خيرًا من هذه الأرض مآل. ثمة فاس ومكناس والدار البيضاء ومراكش، لكن وردة الأطلس بدت أبهى من قريب وبعيد، ووجدناها جديرة أن تحظى بقصب السبق، وما خاب الظن فقد باح الضيف بعد لأيٍ أن لو خيرت وحدي غير مزارها ما كنت عداها أختار، أما أهلوها فنعم الخلق والنشر بين الديار. وإذ سمع الروائي والمدير الجهوي لوزارة الثقافة لإقليم تادلة أزيلال صديقنا عبد الكريم جويطي بالخبر عده ميمونًا وانطلق يشيعه، بل يزفه إلى أسماع أبناء تلك المدينة المتعطشة دومًا إلى المعرفة، مرهفة الحس، قوية الهجس، وهي شديدة البأس، وعطاء الشعر والنثر من خصالها، كما هي هو ماء عين أسردون يصب من جبالها والعيون. تنادوا بالخبر، فكان ذهابنا إليهم يوم السابع من شهر مارس، عامنا هذا، والحق أن هناك مكانًا تتلكأ في الوصول إليه، أو تطرقه بحكم الواجب وللسلام، وآخر تتشوف إليه، فتصل قبل الوصول، أو تجد نفسك تتدبر حالك، وتهدئ رعشك، لا تعرف ما دهاك أو سيحل بك، وتصبح الطريق غير الطريق، والمسالك خطوط على الجسد، ونبض في القلب، وخيالات تطلق لها العنان، ولا يخف ضرام الوجد بعدها إلا إذا تعانقت الأحضان، وكذلك كان.

فيا سادة، ليس أجمل من ربيع المغرب، ولا المغرب في فصل الربيع، وقد أهدتنا الطبيعة في الطريق جمالها سجادات من الزنابق تنافست في الألوان، وتباهت بالأزاهير والأقحوان، يرفرف في قلبها سيدها بلعمان، تحسبه نارًا، تارة، وأخرى وهجًا من خدود

الغيد الحسان. وتعجَّب الشاعر، معه تعجبتُ، كيف أن هذا الحسن، وقد فتنَنا منه في كل درب طوفان، لا يثير عيون شعرائنا، ولا يحرك قرائحهم، تكاد تخلو منه قصائدهم، فتراهم مأخوذين إلى صور منضدة، ومعانٍ مجردة، وأحاسيس مصطنعة، بينما المبذول من الحياة كثير، والمعطى في هذا الفصل أثير، خاصة ما تقنصه عين الخبير، وما أبدع هذا الذي تهادى أمامها عز له النظير. لا تحتاج أن تقول له منبهًا: «شوف! شوف!»، يمضي إلى الصورة قصدًا، تنهمر الرؤية في العين انهمارًا كالسيل المقذوف. وما هو إلا أول السفر إلى بني ملال تغوي عن بعد بالحلاوة والظفر، يستعجلنا لسان جويطي الوصول إليها كل مرة سائلًا، بصوت ملهوف: «فاين وصلتوا؟ أفاين وصلتوا؟» فنطمئنه أنا أشوق منه للوصول، وإلى التملي بتلك الوجه الغرر، لولا أن الشيخ إدريس الناقوري نصب لنا في الطريق البيضاوي مائدة صحراوية حافلة بالأطايب، تصدرها عن يمين ضيفنا عبد الجليل المهيب، وعن يساره إدريس المليانى الشاعر العندليب، وحولنا طيف عروة الزمان محمد باهي ينزل عن راحلته ويعقرها لخدنه البابلي، «فظل العذارى يرتمين بلحمها/وشحم كهداب الدمقس المفتل.» فيا لرؤيته قلبي انفطر!»

انتفض أبو بادية فجأة كأنما حل به كشف: «ها، ها برشيد!» يقصد مداعبتي بمكر، فأجبته: «طبعًا، أنت الآن في مركز العالم، عند أولاد حريز معدن الإبريز!» لك أن تأخذها جدًّا، أو مزحًا، إنما هو يعلم أن بعض لحمي من تراب الشاوية، وكذلك فتنتي وزهوي، ثم صار المغاربة يعرفون أن الرجل اختطفته إحدى عيطات الحاجة الحمداوية، وعلمناه أن هذي الأرض جنٌّ إذا سكنت أحدًا، فكيف بروح شاعر، طار عقله، يظل يطوف في الدنيا لا يقرُّ له قرار إلا بالعودة إلى الدار، وحين عاد رآها «جاية تصفار وتخضار؛ هي، هي، حاطة السالف عالليزار.» من ذاك الزمان لقِّب بحميد لحريزي، ضمن أوشام أخرى نقشها بعض الأخيار.

وإذ صارت برشيد خلفنا تهيأ للبابلي أن الطريق صارت مهادًا إلى من سيتبيَّن بالحدس والملموس أنهم بنو عمومته؛ فقلت له رويدك أين منا تلك الربوع ونحن بعد لم نبرح بلاد امزاب، انظر إلى الأفق القريب نحو تلك الربوة عن يمينك تعلو كالقباب؛ ففوقها توجد «العلوة وامالياها»، كل من بها يشدو، وإليها يهفو، دانيها وقاصيها. ولو أخبرنا عبد الرحيم الجلدي، والميلودي شغموم، والشيخ محمد مفتاح، وسعيد يقطين، فضلًا عن حسن نجمي، وهما معًا أشبانيان، لجعلوا بلدة بن أحمد تخرج لاستقبال ابن العم العراقي عن بكرة أبيها، ولأقاموا الخيام وأطلقوا البارود، ونحروا الصردي المليح؛

فهم قوم فحول وأهل جود، لو، إنما لا بأس يا أبا بادية سنسمع منهم لهذا التقصير أشد العتاب، وأنت أعلم أنه «على قدر الهوى يأتي العتاب.»

وخفنا ونحن نتقدم نحو العصر أن تطول بنا الطريق لو بقينا نتملى صفاتها ومزاياها، خاصة والعام زين يا لصحاب، والمسافة بين بن أحمد وثلاثاء الأولاد قرنفل وخزامى وروائح شواء وكباب؛ فاستعجلنا نداء عبد الكريم يلاحقنا، كمن يهمز ركوبه، مرة، مرة، كي تقطع المفاوز لتعود بمن عن البلاد أطال الغياب، وما نعرف أحدًا بخريبقة التي أهلها في البال، ولا نحن من جهتنا جربنا السؤال، اكتفينا بشرب الشاي قبل أن نعبرها في غبار كالوبال، مستأنسين، لا بأس؛ ففي كل مكان ثمة عرب بالباب. كل الطرق تؤدي إليهم، خاصة هذه، يختال فيها الربيع الطلق، انشرحت بزاهي الأعشاب؛ فهل رأيت خرفانًا، بل الدواب، مثواها ومرعاها حقول يانعة تلمع كالشهاب، وأم مصعب تشغف بالنظر، وكلما زادت تهمس لما نبلغ الوطر، فتستزيد معجبة: «ما شاء الله شو ها الحسن؟! شنو ها الجمال؟!» فتُعطى من حلاوة مغربنا ألف جواب، لم يبخل علينا لحظة في الذهاب وفي الإياب.

أما وقد بدا الأفق مجللًا بسحابة خضراء، تظللها ثانية بيضاء، تحفهما سماء زرقاء؛ فإني استفقت من شرود، والشاعر إثر عطسة خفيفة قال هذه رائحة فيحاء، من أرض سبقنا إليها القوم الألى، وها نحن كأنما نقتفي أثر الأنبياء، غرسوا فيها زيتونتهم على امتداد السهول وسفوح الجبال، وها زيتها يضيء بالأخضر، بكل ألوان الضياء، والتكبير والصلوات إلى فاطر الأرض والسموات، ترفعها حناجر الملاليين والملاليات، يتدافعون بالمناكب تحسبهم موكب حجيج، عشاقًا معًا وأتقياء، قال الشاعر كل شجرة هنا آية، والآية دليل وغاية، لا أذكر كم مشينا في مسالك الغابات، والبابلي قادم من بلدته «الحلة» لا زاد له بعد منفاه اليوم غير قوانين حمو رابي، وديوان المتنبي، وما أفل من نجوم وأحلام امرئ القيس في الفلوات، والناعبين والنادبات بأننا أمة انقرضت، تنقرض، نحن فيها بقية كالرفات … أبا بادية لا تهلك أسًى وتجمل، سنقض مضاجعهم، وأقسم بهذا البلد، ووالد وما ولد، في بني ملال، وسترى الآن المحال!

من رآنا يحسب أننا ندخل المدينة فاتحين، وما نحن إلا بالمحبة لاهجين، مقصدنا هدانا واحد، فثانٍ، وأصبحوا عددًا، حتى إن بلغنا الفندق موكبًا لا تنقصه إلا الأعلام والزغاريد، ناب عنها في الحين العناق والأخذ بالأحضان، ومن كل زاوية نَد الترحاب هذا

يوم عيد، وهب جويطي والرفقة الأجاويد، أحاطوا بالشاعر البابلي إحاطة القلادة بأحلى جِيد، وفوق رءوسنا ترفرف تحيات بيضاء من ثلوج أطلسنا الفريد، انحنت هامته لك أيها العربي وريث جدك المجيد، وعادت تستقيم شامخة، كالعهد بها، تترك العزف يمر قادمًا راقصًا أهله من «وادي العبيد»، وما هي إلا دقائق طارت بنا الأحضان، لتأخذنا أخرى، وجوه بيض، وألسنة تلهج بالتضامن والتقريض، وما هي إلا دقائق وقاعة الغرفة التجارية غص مدرجها بمن جدير أن تسمعهم أعذب القريض، لسانهم ذرب، وحسهم طرب، وذوقهم رطب، وحبهم لا يغيض، وقد أسمعه حميد، والله، ما لم أسمعه منه مذ عهد بعيد، هو المعنَّى بعشق المغرب كم هو مريض، قرأ فأجاد، بأوجاع العراق والأمة قصيده يفيض، وهذا الجمهور الحيي، لا تراه يمل، ليس يداري، ولا هو سكران يميد، بوجد ووعي معًا تسمعه يستزيد، فيه أحمد ومحمد، علي، الحسن والحسين، عمرو وزيد ويزيد، وخديجة وفاطمة الزهراء، وكم هن يسلكهن عقد فريد، أحبين أن يشكرنه فغنين له أعذب الألحان، أصبع على وتر شجي، وأصواتهن الموشح فيها حسن وتجديد، هكذا هي بني ملال تحب أن تزجي فوحها، تكيل الهوى أهواء، ومن زارها صديقًا، صدوقًا، أهدته الأغاريد؛ فإن كان ابن الرافدين، تحيَّر في وصفها، هو بين أفنان وغيد.

... ولا جال في أسواقها ومطاعمها، أهلها يكرمون الضيف على موائدها، من مدخلها يقتنصك أديب لوذعي من أبنائها، نور الدين درموش، ليس ناقدًا أدبيًّا سديدًا، ولا إداريًّا محنكًا، فحسب، بل زاد عليهما هو وأهله الأخيار الأتقياء، إكرام أهل الله من الأدباء الأصفياء، لا يبغون جزاء ولا شكورًا، فهم بما أوتوا من نعمة وخلق سمح، في أعلى عليين، سبحان من هو في العلياء، ولقد أولم لنا آل درموش، نحروا، كما يليق بأهل هذه الساكنة أن يفعلوا، جريًا على سنة أجدادهم في الجزيرة العربية واليمن السعيد، أحسنوا وفادتنا، وغمروا الشاعر إكرامًا وإجلالًا، شيبًا وشبابًا، حتى خاف لسان حاله أن يقول: ما بعد هذا من مزيد! وكلما جال الهوى بأن يبوح بخاطره هبوا يحملون من الطعام كل صنف جديد، وأخيرًا أشرت له أفهمه: يا أبا بادية أنت هنا في بلد معطاء، انظر معي هذي النجب وهؤلاء النجباء، وهذا البيت بالذات من سلالة الفقهاء، وهؤلاء عادة أجرهم عند ربهم، وعدهم وسعدهم غدًا في الجنة الفيحاء، إنهم يشترون بحبك يوم القيامة، ونحن عرب وأمازيغ هذا البلد اعتزازنا بعزيز القوم شديد، ووقفتنا إلى جانبه صلب عنيد، وكل من دخل بني ملال بقلب سليم وأتاها بوجه حسن، فكيف لو زاده شعره، ووطنه هو غربته، إنا والله نفديه بأرواحنا؛ ألا سَل «كتيبة» جويطي كم فيها من شهيد!

... ولما عاد أبو بادية إلى حيث انغلقت عليه أبواب منفاه، اتصلت أطمئن على الوصول، وإنما يطمئن قلبي على ما كنت قد آمنت به، فسمعته وصوته أجش مختنق، ويعلو تارة وفي جوفه كبد محترق: «والله لو كانوا أبناء عمومتي اللح لما استقبلوني كما فعل أهل بني ملالَ»

باريس في ٠٣/٠٥/٢٠٠٩م

صداقة بلا حدود

لروح صديقي الفنان والإنسان الكبير
بهجت عثمان.

فلعلك لو أذبت بعض الفقاقيع، ومسحت ما علق بالمنضدة والكراسي من غبار، والستائر سحبتها قليلا، سيتسلل طيف ضوء حيي ... وفجأة، برمته يحل ضيفًا بيننا وعلينا ربع قرن مضى قد حضر. كان هو بدونه لا نكون، نتلف شهورًا غافية، ونسقط من سقف العمر ما تعلق من عناكب؛ فينهض بعده الربع الأعتى والأبهى، تجمعه في قبضة لنتلفه في غفلة.

لا أذكر أيكما جاء إلى الآخر، نحن الآن جلوس في نضارة الصباح تتلمظان بعد بنشوة الليلة الفائتة، ومن شرفة الطابق الأول للفيلَّا البيضاء، في حي راسين بالدار البيضاء الهالكة؛ حيث نزل ضيفًا عليك، تتطلعان إلى سماء ترسل أشعة شمس أربعة وسبعين هي أم خمس وسبعين وتسعمائة وألف. عادة هو لا يجلس ولا يمشي، ولا ينام، ولا يصحو، ولا يأكل ولا يجوع، ولا يظمأ وما يكفُّ يكرع. هذا الواحد القديم من آلهة وملوك وكهنة وسحرة الفراعنة، نسوه حين أثثوا قبورهم داخل أهراماتهم، وفي رواية أخرى أن جميع الأهرامات لم تتسع لقامته التي تبدأ من الدلتا وتسوخ جذوع قدميها في منابع النيل. أما كلامه فهو الحداء رافق قوافل رحلة الشتاء والصيف، واغتذى بها من كانوا في الجاهلية العظمى عربًا كما يهتدي الضال بنار القِرى. وهكذا نسيه شيوخ القبائل — وقد كان دينًا وحده فسها عن ذكره عمدًا «الأنبياء»، بينما أحب هو عن عمد جميع الرسل والأصفياء — ومن جاءوا بعدهم، والذين تولاهم الله، فالذين تولوا أمورنا، شئنا أم أبينا، وبقينا نعلك الأيام ونحتسي المرارة إلى أن بُعث فينا؛ فاكتشفته الشمس

صبيحة ذلك اليوم قادمًا إليك في منتصف العقد السابع من القاهرة، قاهرة المعز لدين الله الفاطمي، حاملًا باليد اليمنى قلبه يلوِّح به للمستقبلين، ولم تكن إلا أنت، وقد كتبت عليه بخط ضحكة فيحاء: بهجت عثمان.

وبهجت عثمان هذا بالمختصر غير المفيد — وهذه مجرد إفادة عجلى لقارئ عجل — إنسان عربي ومواطن مصري، ورث جميع الحضارات والأديان والملل والنحل واللغات والأفراح والأتراح. ظهر على سطح كوكب الأرض بالقاهرة سنة ١٩٣٠م، درس الفنون الجميلة، وعمل في الصحافة ردحًا من الزمن بـ: «روز اليوسف»، «الأخبار»، «العربي»، «الأهالي». رسام كاريكاتور، أي يرسم الناس والعالم بالمقلوب، أو بالأحرى على الوجه الصحيح، وإن شئتم بالمضحك المبكي. انقطع عن هذا اللون من الرسم حين اتسع الخرق على الراتق، حين اقتنع أن الحياة كلها صارت كاريكاتورًا، وألا فائدة بعدُ من زيادة السماجة. عندئذٍ انصرف إلى رسوم الأطفال، أو على الأغلب إلى تطريز قصص للأطفال برسوم جميلة ومرحة. وقد كانت زوجته، حبيبته ورفيقة عمره السيدة بدر، «بداديرو»، أو «ماما» كما ناداها دائمًا. كانت بدر فنانة بحق، من مواهبها العديدة التي اشتهرت بها صنع الدمى، الدمى البلدي خاصة، والعرايس تصلح لمسرح الكراكيز ولغيره، منه فن تصاميم الطفولة والزينة عامة، مستوحاة جلها من الفنون الشعبية، ومعيش المواطن المصري «الغلبان».

لهذا المواطن أخلص بهجت عثمان طوال حياته، مؤمنًا بشعبه، وزعاماته الوطنية والقومية، جُعلت قرة عينه في عبد الناصر، ردد دائمًا أنه مدين له بالشقة الصغيرة التي تملَّكها في حي المنيل بالقاهرة، ضمن مشروع اشتراكي، دفع ثمنها بشقا العمر أقساطًا. وعادى بهجت إسرائيل عداءً شديدًا، رافضًا أي تطبيع من أي نوع. متخذًا مواقف شجاعة من أجل ذلك لا يضاهيها إلا وقوفه القوي في الصف الديمقراطي التقدمي، وضد الدكتاتورية والاستبداد؛ لذا كان خصومه كثرًا، هو الذي اصطفى أصدقاءه الكثيرين، أولًا، ثم القليلين من الصفوة المختارة عنده بعد ذلك. منهم شيخ الرواية العربية نجيب محفوظ، والممثل السينمائي الشامخ أحمد مظهر، والصحفي اللبناني الكبير ظلال سلمان، وهي عينة فقط، ويشهد الله أن موقعي في قلبه، ومنزلتي عنده، لم تقلَّ عن هؤلاء، على تفاوتٍ في الأعمار، إن لم تزد، عربونها ربع قرن من المحبة، وعنوانها «صداقة بلا حدود» ولهذه حكاية لا أجمل ولا أعذب. كان حبيبنا قد أصيب بمرض السكري، ولم يكن يرحم نفسه في حياته ونمط عيشهن تزيدهما مكابداته، فضلًا كدحه الدائم لتوفير

عيش كريم لأسرته، بتوفير تعليم ناجح لولديه الشابين الباش مهندس هشام، والأديب الأريب وليد. كبرا وشبَّا أمامنا وبقي هو أصغرهم سنًّا، عجبًا، وأوقدهم جمرًا والتهابًا بما كان يطمح إليه، من أجل أمته، يسميه على سبيل السخرية اللاذعة بلازمته المعهودة: «نحو بعد غد أفضل!» ولم يحل الغد الذي انتظره بهجت طويلًا، مديدًا، وأمسى هو نحيلًا كخيط بتأثير السكري دون أن تفارق أقلام الرسم أصابعه، وظل هو هو، لم يصالح، ولم يطبع، بأي شكل، ولم يساوم على مبادئه أو يتنازل لأي دكتاتور، إلى أن أسلم الروح إلى باريها بالقاهرة في الثاني من يونيو من سنة ٢٠٠١م.

استئناف الشوق

قلت إنه خط اسمه على قلبه وحمله ليعلن عن وصوله، فاحتضنناه جميعًا، وفي البداية كنا فرادى أوائل: مصطفى القرشاوي (الراحل بعده)، عبد الله بوهلال، وعبد ربه. وصل بهجت في زمن إعادة تأسيس النضال وإرساء مبادئ الحرية والديمقراطية والتقدم، في زمن الانطلاق المارد لجريدة «المحرر» — وهذا تاريخ غير مكتوب، كم نخشي عليه من الضياع.

لقد كنا إذ ذاك شبابًا يزهون بالزمان رغم أن السجون والمحن فعلت فعلها بالأجساد. كانت أيدي الظلام قد اغتالت الشهيد عمر بن جلون، وعوَّلنا على القصاص بمواصلة رسالته، وكنا جديين حسب اللازم وأكثر. وبلا توقع حل بيننا بهجت ليعلمنا درسًا لا يُنسى، وإن نسيناه، مفاده أن التزام خط النضال والإيمان العميق بالمبادئ، والاستعداد للتضحية من أجلها (كان ذلك في الزمن الغابر) لا يتناقض مع المرح والبهجة، ومنه عنده أن النفس المنقبضة والوجه المكفهر لا يمكن أن يعطي مستقبلًا فرحًا للناس، للجماهير ... وفن الكاريكاتور، إذا توفرت له الموهبة والثقافة السياسية والاجتماعية، فضلًا عن الفطرة الإنسانية، يمكن أن يصبح أداة مزدوجة الدور؛ فهي تناوش وتتحرش وتستفز في اتجاه التغيير، فيما هي تثير الإحساس بالمفارقة الساخرة والمضحكة في آن. هاكم مثالًا طريفًا، ففي الأسبوع الأول من وصول بهجت إلى الدار البيضاء، وبعد أن زارنا في مقر «المحرر» الذي اخترنا أن نسميه «الباطوار» أي Les abattoirs لوقوعها في منطقة مسلخ الدار البيضاء الموحش، الخالي من مظاهر الحياة ما عدا الدماء التي تراق به فجر كل يوم للخرفان والعجول والأبقار، ويقصده قوم من كل الأحياء لالتهام قضبان اللحم ورءوس الغنم المشوية، وهذا من ساعات الصباح الأولى، وقد يكون صحفيو جريدتنا منهم إذا توفر مال وقلَّ أن يتوفر، فهم مناضلون!

أقول إن بهجت بعد زيارة الجريدة، وتجوالي معه في بعض الأسواق، منها سوق الجمعة جنوبي حي البلدية، استطاع أن يكون فكرة عن الأسواق، وأتذكر أن سعر اللحوم وقتها عرف ارتفاعًا مدوخًا. جلسنا نستريح بعد الجلسة في مقهى وإذ صاحبنا أخرج قلمًا وورقة، عتاد لا يفارقه، وبعد دقيقتين قدم لي رسمًا عبارة عن صورة مواطن يقف أمام محل جزار، بيده ربما قطعة لحم، قبالته مصور يلتقط له صورة، كتب تحتها التعليق التالي: «صورة تذكارية للمواطن الفلاني بمناسبة شرائه كيلو لحم!» وقد تحمس عبد الله بوهلال، وهو سكرتير التحرير، لنشر الصورة بالصفحة الأولى، ما احتاج إلى تداول بين «لخوت»؛ لأن الاتحاديين (مناضلو الاتحاد الاشتراكي للقوات الشعبية، الذي يصدر الجريدة) الفرح ليس مهنتهم، كما قال الشاعر الماغوط، لكنهم هذه المرة «تنازلوا» وبلعوا الموسى من أجل الضيف الكبير، ونشر الكاريكاتور في الأولى، ليلقى أوسع صدى، وهي المرة الأولى والأخيرة.

لا يخلو كلامي من مبالغة هي من خصائص فن الكاريكاتور، أو «المسخرة» التي كنا نعيش فيها آنذاك، وكل طرف سعى للانتصار عليها بطريقةٍ ما. الحق أن «وافق شنٌّ طبقة» أو أن بعض أبناء الاتحاد وجدوا هواهم في الفنان المصري الوافد، وهو كذلك، كأنه جاء — وقد حل في الوقت المناسب — ليشخص من خلال الاحتفاء به، والتعلق بما يصنع جاذبيته. ذاك البعد، المكوِّن القومي، تحديدًا العروبي الناصري، الذي يُعَد عجينًا حيًّا في الاتحاد الوطني للقوات الشعبية، والاتحاد الاشتراكي ليس إلا استمراره بعد مؤتمره الاستثنائي لسنة ١٩٧٥م، وفي بهجت ينبوع محبة لا ينضب لعبد الناصر — وقد رأى دائمًا أن خطاياه تضؤُل أمام مزاياه، واستمر على خلاف مع مناوئيه الشيوعيين خاصة، حتى وهم من خلصائه، بينهم صديقنا المشترك الروائي الكبير صنع الله إبراهيم — فإذا أضفت إليه رواء الحب: حب الفن؛ الغناء والمسرح والرقص والتشكيل والفنون الشعبية، وللأدب وحده مكان عظيم عنده، أدركت! سر التجاوب بينه وبعض أولئك، وفهمت أن زيارته إلى المغرب بخصاله وشمائله ومواهبه قبل كل شيء، أنعشت أرواحًا، وأحيت نفوسًا عاشت دومًا على حب مصر، وهي وقتها قلب العروبة النابض.

أندلس هشام ووليد

في سنة ١٩٨٨م أصدرت ديواني الشعري الثاني عنونته «أندلس الرغبة»، وهذا قبل أن تبور هذه البضاعة في سوق الأدب. كانت عشر سنوات قد مضت على الذكرى التي قدحت

في نفسي زناد العنوان، وبعض وهجه ومباهجه، وللحزن هذا الحنين. أظنه عاد لزيارتنا بعد عام أو أكثر، لا أتذكر جيدًا. لكن أتذكر أنه عاد بمعية زوجته بدر وولديه الفتيَّين وقتئذٍ؛ هشام ووليد. وأسرَّ لي من الوصول، وقد انتظرته في مطلع الصيف، أن المغرب هذه المرة محطة عبور. طبعًا، ستزور «القبيلة» مراكش وفاس على عجل؛ لنمتطي بعد ذلك هودج سيارتي، وهوب صعدًا إلى الأندلس، أيامها لم تكن الأمور معقدة، ولا حدود مغلقة ولا شينغن، تركب السفينة العبَّارة من مرفأ طنجة وبعد ساعة تحط بميناء الجزيرة الإسباني، وتفضل، وها نحن في إسبانيا، ولسانه من أول نظرة يتدفق إعجابًا مشوبًا بالحسرات: «وشوفوا يا أولاد! أجدادكو العرب، أجدادكو الجرب، عملوا إيه، وسابوا إيه، شوفوا يا أولاد!»

اخترنا الصعود مباشرة إلى مدريد وهي لهب؛ فالزمن نهاية تموز. خلا بداديرو في غرفة واحدة، آوتنا نحن الأربعة غرفة كبيرة توفيرًا للمال من أجل زيارة المتاحف، والمشاهدة والتمتع، طبعًا، في الليل، وإلا ما هو السفر؟! لم نكن نشبع من النظر، ونغشى متحف البرادو في كل وقت، إلا الليل. ها هي مدريد تولد في عيني من جديد، لا أذكر كم مرة زرتها، وباستثناء واحدة هِمت فيها على وجهي متيمًا بمن حملتني إليها؛ فإن تلك الزيارة زمن مفرد. كانت لبهاجيجو معرفة دقيقة بكل لوحة، ورواق، ونصب، وحركة جسد، جامد أو حي. هي معرفة الشغوف لا العالم، أو المتنطع، ولا المستقاة من دليل سياحي؛ لذلك اغتاظت منه إحدى المرشدات ونحن أمام نصب عربي قديم، وقد لاحظت إسهابه في قراءة إحدى اللوحات أمام بضعة سياح، فخاطبته قائلة: «أوَنسيك العرب هنا قبل أن يرحلوا؟!»

ووالله أحسبها أصابته في مقتل؛ إذ ما إن نزلنا غرناطة حتى ضيعنا أنفسنا، فما عرفنا إن نحن في مغناة شوق أم نركب أراجيح الشجن، أم هما معًا، وإذَن هذا قصر الحمراء، وهذا هشام، هشام بن عبد الملك، ووليد، وليد بن عبد الملك، وهذا بهجت عثمان الداخل، سليل عبد الرحمن الداخل، وقبله توت عنخ آمون، حمو رابي، وجلجامش، والأقواس، والفسيفساء، والسقاية، والأندلس، ضوءُها، قمرها، كرمها، فسقياتها وزليجها، ولَّادتها (ولَّادة بنت المستكفي)، ابن حزمها وابن زيدونها، والمعتمد ابن عباد معتوقًا من أسر أغمات، مجرد تصور شارد، وكل المآذن من بحة الخيرالدا يوم كانت صومعة تهلل بالتكبير، وفي رمشة عين تعبر عدسات التصوير، مثل صفاء الجدول تجري دمعًا في عينيه، أو من عيني فيوقظني أو يحرضني، لا أدري، بالصيحة الراجفة: «وشوفوا يا أولاد، شوفوا، بنوها ازاي؛ بس قولوا لي سابوها ازاي؟!»

لم يكن عند الغجر في ليل غرناطة كبير شيء يعلمونه لبهاجيجو، آخر عاهل من ملوك الطوائف، وقبل ذلك بائع طيور وصائد حور وقناص نجوم بين تلال قرطبة وسهل إشبيلية — دسسناهما على عجل بنظرة في القلب — وقبل ذلك نورسًا في خيال «الكيخوطي»، فحلق من النيل، من قلعة محمد علي، من البوغاز حلق بنا إلى الأندلس، نحاول ملكًا أو نهيم فنُعذرا.

آخر الشهداء

ولم يكن لي عذر في الباقي؛ لذلك تركتني أنقاد إلى التجوال بلا سؤال. قبل ربع قرن تقريبًا، حين حللت بأرض الكنانة سرت فيها كالأعمى حينًا، ومقتف خطوات أبطال ثلاثية نجيب محفوظ الروائية الشهيرة، حينًا آخر. بعد عامين من الرحلة الأندلسية حللت بالقاهرة لأجده بانتظاري في المطار، ومنه انتقلنا إلى شارع عبد العزيز خيري بحي المنيل حيث يقيم. ومن الغبوق إلى الصبوح، في صباح قاهري مشمس ربيعًا اقتادني، يدًا بيد كعادتنا، وتوقفنا عند مقهى محمد علي، الواقع بين ميدان التحرير وساحة طلعت حرب. مقهًى صغير بطابق واحد. صعدنا درجه الضيق والساعة التاسعة، وتقدم أمامي نحو طاولة في الزاوية، فهلل الرجل الجالس بمقدمه، وأقبل نحونا مزيحًا عنه كومة جرائد. سارع بهجت على سبيل التقديم:

«عمو نجيب، نجيب محفوظ، طبعًا!» فغمرني شعور اعتزاز وامتنان. ثم التفت إليَّ يقدمني وأنا في حال من الخجل: «ودا يا سيدي أمي أحمد المديني (كذا)»، وكان يدعوني أمه من شدة ما أُبديه من حرص عليه، وانتباهي لـ «قفشاته» من اليقظة إلى الصحو!

فيما كان في القاهرة فهو عيناي ولساني وكل شيء. ومن زارها ولم يعرفه فقد أضاع نصفها، مكانًا وتاريخًا ورجالًا وأسرارًا. لم تنكرني ولا كنت أجهلهم: مذ الشاعر صلاح عبد الصبور تعارفنا في الجزائر سنة ١٩٧٤م، إلى نجيب سرور يغادرنا باكرًا في مقهى ريش ملتاعًا، وهي تعج بأدباء النكسة، وما بعدها، والعهد الساداتي تنين بألف رأس. أما مع بهجت فكل وجه وأي مكان هو ذاكرة وطريق، دال ومدلول. و«ابتدا المشوار»: «آخذك على التجمع (معقل الناصرية الصامدة) حنقابل الأستاذ خالد محي الدين. والمسا حنتعشى عند محمد عودة، وحتيجي فريدة (النقاش) ولطفي الخولي ... وبكرة الأربعا مفيش، القعدة مخصوصة يا سيدي لشلة الحرافيش.» لا أذكر إن كانت معرفتي بالشاعر الزجال أحمد فؤاد نجم، ومولانا الشيخ إمام في حي الغورية قد تمت

على يده أم قادني إليهما في بيت إمام الروائي عبده جبير؛ لكن القاهرة كانت، وما تزال، ترن بكتابها ومثقفيها وفنانيها الوطنيين والأصلاء؛ في هاتفه الليل كله ترن، وأمام خطانا نرى «المحروسة» تتهادى بين الأضواء والأهواء.

فمن الليل بقية تسلمنا لعطايا، في العهد الزاهر للأهرام وشارع الهرم. للنجوم تهبط من السماء لتنادمنا في عوامتنا، في النيل. و«تشرق الشمس، أيضًا» فتستيقظ مصر على كاريكاتور جديد لبهجت يصارع الجبروت والظلموت مفجرًا غضب شعب بأكمله، قارئًا خبايا وأوزار عيشه، محاربا بالخط واللون والحركة المتموجة انكسارات العهد الساداتي، ومن اجتياح «القطط السمان» إلى جراد «الانفتاح»، وتلاحقت البقايا ... أذكر أننا احتفلنا بموتنا يا صديقي منذ عهد قديم حتى الثمالة. طعمنا لحومنا، وأهديناهم أرواحنا التي لا يستحقون، لكننا سلطنا عليهم شياطيننا ليفعلوا بهم الأفاعيل. أذكر كيف احتفلنا بتأسيس تلك الجمعية العظيمة، جمعيتنا «صداقة بلا حدود» وكنت وحدك الخيمة والفيء يأوي إليهما كل العرب الأحرار، الأشراف، أيام تلك الأوطان. طبعًا، سابقًا، كان سابقًا، «شوفوا، شوفوا، يا أولاد!»

اعذرني أخيرًا وأنت هناك. لا أعرف مقدار ما سيتدفق على شاهدتك من المراثي، اعذرني فما عندي اليوم إلا الحشرجة، وأنت قبل هذا وذاك لم تخلق للبكا، وإنما للبهجة يا بهجت، للغناء والجمال، للصبايا، أحلاهن غدت بلبك بدر، وعيون «بهية». والآن، ورغم هذا كله، أو بسببه، تذكر دائمًا موعدنا، ألم تضرب لنا لقاءً «نحو بعد غد أفضل؟!» فيا نديم عمري إلى اللقاء.

في المكان الآخر من الحياة

فحص لنص الهجرة المريض

عنوان هذه الورقة اعتباطي بحت، ومن الجائز ألا تكون له إلا علاقة متباعدة مع الموضوع الذي نلتقي حوله في هذه المناسبة الشجية واللطيفة.[1] فمن بين المقاصد الكبيرة والمنظمة لدى الناس في هذا العالم ربما جاءت الكتابة، على الرغم من هالة الجلال والهيبة التي نحيطها بها، في المرتبة الأقل تطلبًا للقصدية والوعي الكلي، كمن يسدد السهم إلى مرماه ليصيب في مقتل، أو تلك التحبيرات الأخرى، بوصف مهذب، يعرف أصحابها من أين تؤكل الكتف. وهذا لا يعني أنها متاحة لكل عابر سبيل، حتى وهي ليست امتيازًا كالأقوال الدرر للأنبياء؛ لأن صاحبها — ندعوه اليوم مجترحها، وهناك من يلقبه مبدعها مطبِّقًا تسوية دينية مع الخلق الإلهي (ق٤م والأوغسطينية) — يجازف، ومن معاني المجازفة المخاطرة، وعدم اتخاذ الحيطة، وحساب الخطوة قبل السير أو القفز في الهواء، ولو جاز لنا أن نستعير الآية القرآنية لهذا السياق لقلنا محذرين من رداها: ﴿وَلَا تُلْقُوا بِأَيْدِيكُمْ إِلَى التَّهْلُكَةِ﴾! فإذا كانت الكتابة بصيغة الإبداع هي التهلكة، فأي معنى سيبقى للهجرة بعدها يا ترى؟! يستفسر السؤال ويستنكر، وفي الحالتين ملاقٍ مسوغه، ألسنا، هنا، في مجال الحدس والتأويل، وتعدد الكلمة والتجربة على أكثر

[1] ترجع أصول هذه المقالة إلى أفكار عالجتها في مناسبتين: الأولى ندوة عن الكتابة المهاجرة؛ نظمها المكتب المركزي لاتحاد كتاب المغرب، والثانية في مناظرة بالمدرسة العليا للعلوم الاجتماعية بباريس ٢٠٠٨م.

من ضرب، وبهذا يمكن للموضوع، وهذا الموضوع بالذات، أن يكتسب موقع الانزياح، أي اكتساب صفات أو شروط الإقامة — هذه الكلمة التي يعرفها المهاجرون جيدًا — في التراب الإبداعي الخصوصي، أو يقاد من جديد إلى الحدود. أليس كذلك؟!

إنما رويدًا، فأي صفة أو خواص يمكن التطلع إلى اكتسابها وتخلقها، طبعًا عندما يتعلق الأمر بمولود، بين كائن، شخص مهاجر، ومتكون، نص تلده التجربة على سبيل التحقق لا الافتراض أو لمجرد الانتقال، الارتحال في المكان؟ كيف يمكن السعي إلى الصفة والتوصيف مع ذات تقوم بفعل سِمته الأولى هي القطع والتخلي عن ذاتها الاجتماعية، وموطن هويتها اللغوية والتاريخية لتقفز مباشرة، بوعي أو مجازفة في ورطة الهوية الأخرى التي لن تنال أبدًا؛ لأن الهدف ليس صوغ معادلة مقبولة رياضيًّا، بالتالي منطقيًّا، وبمقابل عاطفي مناسب، كيف يتأتى هذا أو ذاك إذا كان المعنى الأول الذي ينصرف له الأُس الأول لكلمة الهجرة معجميًّا هو: الترك. بوقفة قصيرة لاستقصاء المفردة معجميًّا نجدها تحيل إلى ما يلي:

جاء في «اللسان» الهجر ضد الوصل. هجَره يهجُره هجرًا وهجرانًا: صرمه، وهما يهتجران ويتهاجران، والاسم الهِجرة. والهُجرة الخروج من أرض إلى أرض. والهُجر القبيح من الكلام. جاء في «الصحاح» الهِجران والهِجرة والمهاجرة من أرض إلى أرض ترك الأولى للثانية. وفي «اللسان» هَجَر في نومه ومرضه يهجُر هجرًا وهِجَيرى وإهجيرى بمعنى هذى. قال سيبويه: الهِجيري اسم من هجر إذا هذى. وهجر المريض يهجُر هجرًا فهو هاجر. والهجير والهجيرة والهجر والهاجرة نصف النهار عند زوال الشمس إلى العصر، وقيل في كل ذلك إنه شدة الحر. والتهجير والتهجر والإهجار: السير في الهاجرة. وزاد «الصحاح» من هاجر الكلام مهجور أي باطل.

هكذا يتنزل من المعجم على وجه الاستخلاص وبقصدية موجهة لهذا البحث معاني: الترك، والقطع، والتخلي، والنبذ، والبطلان، والهذي، والتهجر، وكلها — كما نلحظ — محصورة في دلالات القهر والقسر والغَلَب، نافية للحرية والاختيار، نقيض للمطاوعة، وباستعارة الاصطلاح المعتزلي يجوز لنا القول إنها أو المكابده يقعان تحت طائلة الجبر. ولو زدنا فحصًا لوجدنا أن المفردة في الخريطة المعجمية العربية، وانطلاقًا منها، تحيل دلاليًّا على شبكة متواشجة الخيوط صانعة عُشًّا، فضاءً مشتركًا، كما نحب، هو المكان الذي يهجر، الذي يتخذ مرة مرجعية عاطفية أو هو المكان العاطفي، نعني مرتع الحب يحيا بالوصل، والوصال، ويحزن (يفنى) بالهجر والتصارم، وهو ضد التواصل. ومرة

ثانية يتعين بمرجعية طبيعية ووضعية في آن، وطنًا يولد فيه الإنسان وإليه ينتسب وفيه يكسب ويكتسب مجمل خلائقه وثقافته العامة، مع ما يستتبع ذلك من مقتضيات في قلبها الاستقرار والشعور بالأمان وتبادل المصلحة، والخضوع لـ «العقد الاجتماعي»، أو فقدان هذه الحيازات الفطرية نوعًا ما، والنزوح إلى فضاء في ظروف قسوة التهجر، أي السير في الهجير، وفي الحديث: «هاجروا ولا تهَجَّروا.» فيما المرجعية الثالثة دينية، دائمًا على وجه الإكراه، يتخذ فيها الدال الصفة الطهرانية الأولى، حيث المكان، الوطن الأول هو الجنة التي ولد فيها آدم وحواء وهجراها، هجِّرا منها، لم يعرفا كيف يحافظان على البقاء فيها أو نقَضا بالأحرى قانون البقاء فيها، طُردا منها بسبب الغواية (الشيطان) إلى الأرض ليكونا المهاجر الأول ويبدأ الإنسان الرحلة اللانهائية، رحلة الاختبار، إلى يوم القصاص، يوم الدين: «فَأَزَلَّهُمَا الشَّيْطَانُ عَنْهَا (الجنة) فَأَخْرَجَهُمَا مِمَّا كَانَا فِيهِ، وَقُلْنَا اهْبِطُواْ بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ، وَلَكُمْ فِي الْأَرْضِ مُسْتَقَرٌّ وَمَتَاعٌ إِلَى حِينٍ» (البقرة ٣٥). وإلى هذه المرجعية ينتمي سلوك الهجرة الدينية التي اضطر إليها «المهاجرون» في بداية الرسالة حين تغالب «كفار قريش» على أتباع النبي الكريم محمد ﷺ فلم يجدوا بدًّا من مغادرة مكة (موطنهم، وعشيرتهم، وثقافتهم، ومرابع صباهم ومشاعرهم) ناجين بجلدهم، وفارين بعقيدتهم نحو يثرب، إلى المدينة حيث سيلاقيهم الأنصار، ويثابون، وهنا يكون الثواب، الجزاء، على قدر الفعل ومن معدنه، وإلا فالهجرة ضمنًا مذمومة، تأمل الحديث: «إنما الأعمال بالنيات، وإنما لكل امرئ ما نوى. فمن كانت هجرته إلى الله ورسوله فهجرته لما هاجر إليه، ومن كانت هجرته إلى دنيا يصيبها أو امرأة يتزوجها، فهجرته إلى ما هاجر إليه» (صحيح، رواه الشيخان مسلم والبخاري). ومما يجدر ذكره أننا، وإزاء هذه المرجعية الأخيرة، وضمن هذا المثال يمكن أن نعثر على التركيب الجامع للسياقات الثلاثة السالفة، وحيث المفردة تتحول إلى أيقونة مصنوعة، ومشغولة في آن بالدال والمدلول والدلالة.

هذا، ولَّما ينقطع الإنسان عن وطنه بقسر الهجرة، والمؤمن عن وطن عقيدته بترك الدار، فإنه ذاهب إلى «ما هاجر إليه» حسب الحديث الشريف، وعندنا، مع القاموس، أنه ينقلب إلى حال «الهاجر» أي المريض، بعبارة هجَر المريض، وعلامة العلة الهذيان، وهل الهجر غير الهذيان، إنه حالة التهلكة؛ أوَلم نخبركم من قبل متسائلين إن لم يكن الإبداع غير التهلكة؛ فماذا يكون يا ترى، وهو ما ينسجم تمامًا مع الهجرة التي أصلًا مرض وشذوذ بالخروج عن طور المستقر، أو غير المنبوذ المنقاد نحو الترك. ذاك ما يتفق أكثر في زوج يجمع الشيء وضده، تتآخى فيه الأضداد بقرينة الخروج عن مألوف الأشياء،

بنقض منطق العيش السواء والقول السواء، واستبداله بالكلام المهجور، الهذيان، وهو لغة كلام باطل.

لعلكم واجدون الآن بعض تبرير لعنونة هذه الورقة «الوجه الآخر من الحياة»، باعتبار أن البشر الأسوياء، الناعمين في بحبوحة الاستقرار، الذين ما «أُخرجوا من ديارهم» لسبب من الأسباب، هم وجه الحياة الصحيح، ومبدؤها الحق، وسواهم، بالحق أو الباطل، باطل. ونظرًا لأن النص الذي كُتب، ويُكتب في هذا المناخ، ويظل إما صاحبه أو هو ذاته مراوحًا مكانه، لا يتزحزح، متوافقًا، خاضعًا لكل القواعد بما فيها جهل الحنين، فلا «بنيلوب» تغزل صبر انتظارها لعودته، ولا ثمة أي «إيتاكا» سيهتدي إليها يومًا لأنه لم يبرح مكانه قط؛ هذا هو النص الصحيح، بدوره، المختلف عن النص الآخر، الباطل من الإبداع. سيبقى معافًى وسليم العقل غير ممسوس ولا تخطف منشئه الجن والإنس معًا، منذ صيف سنة ١٩٦٠م، يرميانه بضربة كالمنجنيق إلى منفًى عنده وقتها سحيق، من عاصمة الشاوية إلى فاس العلمية، غضًّا طري العود، ليعود ... ومنذ ذلك التاريخ الذي كأن الأعناق ستشرئب لتنظر إليه وهو في الخلف، مثل صاحبه، ما انفك يرتاد الأماكن والأزمنة ويروزهما، جدف طويلًا مثل عوليس في بحر عودة شبه مستحيلة ولما يلاقِ بعد ذاته أو يكاد؛ لأن وردة المستحيل، أبدًا لا تُقطف، أو تذبل سريعًا كالعمر الرث ... أقول ليعود، وها العظم الآن منه يهن، والرأس اشتعل شيبًا، ليهاذي أصحابه، أي يهذي معهم، بما تيسر من حديث الغرباء ...

تلتقي تجربة الزوج المركب من الإبداع والهجرة، وهذه من ذاك، في الجامع المشترك لدلالة الانفصال والانقطاع، ودائمًا عن عالم سابق عليهما، في الوجود والكتابة، معًا. وعلى هذا الأساس فالكاتب المهاجر هو من له «سوابق» des antécédents؛ فالموضوع لا يمكن بناؤه إلا بوجود الفارق، المتن المكتمل أو المنسجم مع شروط إنتاج ما قبل الهجرة، التي يفترض أنها مندرجة في سوق المفاهيم الأدبية، والمعايير النقدية، والقيم الثقافية، تمامًا، كما لو أننا نريد أن نتحدث، أو نصف سلوك شخص، ونعلق لاحقًا على ما اعتراه من تبدل بانتقاله بين بيئتين. سأعطي مثالا آخر: يخطئ مسئولو قطاع الهجرة في المغرب ويترتب عن الخطأ نتائج فادحة حين يصرون على التعامل مع الجيل الراهن من ذوي الأصول المغربية في الخارج بأنهم مهاجرون، وحتى بلقب ملتبس الأصل والغرض «دياسبورا-شتات». فهذا الجيل لم يهاجر، وحتى وهو عرضة لتفاعل ثقافتين، وأحيانًا في مخاضهما، هو يكتب سلوكه، أو يمشي ويشتم ويحب من حيث انبثق. وإذا أبدع فما

إبداعه بضاعة في سوق الهجرة، بأي صورة وتسويق كانت، وكثيرًا ما يتم إخضاعها، من جانب الوطن «الأم» المزعوم، إما لنزعة ولائية فولكلورية بلهاء، أو تجارية مركنتلية رخيصة، ومن جانب الوطن الحاضن، ليكن فرنسا، مثلًا، فهي مطروحة في مزاد النعرات والحسابات السياسوية، وأحيانًا «الهويات القاتلة». أما المعنيُّ بالأمر أساسًا، ذكرًا وأنثى، فحين تحلق به الطائرة فوق مطار الرباط أو محمد الخامس؛ فإنه بعد أن ينزع سماعة MP3 عن أذنيه يطل من كوة الطائرة، وهو يرى أنوارًا تتلألأ فوق عمارات أو بيوت صفيح، يرسل كالتنهيدة، Le bled! هو بدوره يملك مقابلًا شعريًّا لما يمكن أن أقوله أنا تمثيلا فقط: «نقِّل فؤادك حيث شئت من الهوى/ما الحب إلا للحبيب الأول.»

هذا الحب الأول هو الحبل الذي يلتوي حول عنق كاتب مهاجر، يشتري بطاقة المغادرة، ويحصل على تأشيرة يظنها للاعودة، وإذا به بعد مضي سنين على تأسيس أو تجديد نصه، إما كالمنبتِّ لا أرضًا قطع ولا ظهرًا أبقى، وإما يقدم خطوة ويقدم أخرى، أَسرته تلك الساحرة اللعوب اسمها الحنين، وبدلًا من أن يعطينا حصاد المغادرة في شكل غير متوقع من الأشكال، يصدر لنا ذلك المنتوج الشعري الذي لا ينضب بكل تأكيد، غير أنه لا يحتاج بالضرورة إلى الرحيل عن المكان والمكوث في عين المكان، طبعًا هي la nostagie كالعادة! إنه ليس حكم قيمة، وربما كلام أقرب إلى تشخيص الذات، هناك من يسميه مقتًا نقدها؛ فالذات لا تكف عن التطور، ولا يمكن لمستقبلها أن يطابق ماضيها وإلا هي ماتت، والهجرة، الإبداع في فضاء وسياق الهجرة حياة، بل هي الحياة الأخرى، تسبق بطريقةٍ ما «الحياة الآخرة» التي تجري من تحتها الأنهار، وفيها بعض قرائنها بما أنها تجمع بين الجنة والنار.

إن أول مظهر لوجه الحياة الجديدة، هذه، خضوعها للازدواجية في النظرة، هي ما يتبلور في مسلسل من الثنائيات يفضي تركيبها إلى اقتراح بلاغة وإستطيقا وأيديولوجيا الموضوع. تتمثل الازدواجية في قطبين، هو في الحقيقة قطب واحد نسميه إجرائيًّا «الوطن الأصلي - الضمني»، وبالإمكان تعداد كثير من الصفات المائزة له تلتقي كلها حول معنًى مشترك هو ما يهرب منه نص الهجرة ولا يملك الفكاك منه في آن، وعناصره هي التوتر، ديمومة توتر النقائض بين الـ «هنا» والـ «هناك» بتجلياتها وأبعادها المختلفة، نحسب أن فطنة المعنيين قمينة باستحضارها في مستوياتها العامة، هي ما يتم تعيينها في ثنائيات: (١) اللغة/لغة أخرى (أجنبية غالبًا). (٢) الثقافة/ثقافة ثانية. (٣) المحيط أو البيئة/أخرى مغايرة. (٤) المعيش/معيش الصدمة البديل. وما لنا لا نضيف مرتبة المثاقفة كمستوًى قابل ليجمع هذه كلها لوجود صيغة التفاعل، من نحو، وباعتبارها

عتبة ولحظة تاريخية هامة في النسق الفكري والتاريخي للعلاقة بين الأنا والآخر، نحن والغرب. فهل نحتاج إلى التذكير بأن موضوعنا يقع في صلب هذه العلاقة، ودون تصور حركة تتجه من الجنوب إلى الشمال جسدًا ووجدانًا وعقلًا، وبالمحصلة نصًّا راسمًا لهذه الحركة، مصطخبًا بتوتراتها، لا مندوحة من القول بأن الموضوع ينتفي من أساسه.

بإمكان آلية التحليل أن تنشط الآن على صعيد كل ثنائية على حدة، وستتخذ تمظهرات عدة في مقدمها رصد التعارض، ووصفه، وتقويمه، وأخيرًا حساب أثره كعنصر بين عناصر متضافرة في بنية نص مفترض اسمه «نص الهجرة»، ويقبل تسمية «هجرة النص» بناء على من تحدثوا عن «عودة النص» كناية عن الإبداعات المكتوبة بلغات أجنبية، تلك المنقولة إلى العربية وكأنها كانت، من عجب، على ضلال. نقول إن الآلية قابلة لأن تنشط في هذا المستوى فتستوعب جملة من الإشكاليات التي لا نستطيع معها في هذا المجال أكثر من التعيين، داعين إلى أخذها في الحسبان بالتحليل والفحص المسهبَين، متحملين تبعات الاختزال بل الابتسار. وبما أن اللغة هي أول أداة في صناعة الأدب فهي المعيار الأول كذلك في تحديد نسبه، وبإمكان هذا العنصر وحده أن يشكل مادة للدرس، والبحث خاصة في ماهية ما اصطلحنا على تسميته «أدب هجرة».

والواقع أننا هنا أمام لغات، وتحتاج أن تتحول إلى ظاهرة ليجوز الحديث حقًّا عن جنس أو صنف، عن طريق تواتر الكتابة بها، وتحقيق تراكم معقول، وتنامي تقاليد، إلى غيره مما يضعنا أمام متن مميز أو قابل للتمييز، وهذا على الرغم من أن الخاصية الأبرز في هذا المتن، إلى جانب تشجُّره اللغوي، هجنته القصوى حيث تتجاور وتتقاطع قواميس ونبرات وبلاغات، ناهيك عن المصادر الثقافية والتصورات التخييلية ورؤى العالم. وبما أننا نتحدث وفي الذهن ما يشبه اتفاقًا ضمنيًّا عن الكلام في إطار الأدب الوطني الواحد، بالصيغة المشترطة في الدراسات الأدبية المقارنة، لا بد من التساؤل ما إن كانت اللغة وحدها كافية لتجسير العلاقة مع هذا الأدب، وما إن كان تغربها عن اللغة السائدة تعليميًا، بمحمولاتها المخصوصة، المتنازعة بين محيطين، يُعَد مقياسًا أساسًا للحسم في الانتماء إلى النص الهِجروي. لا بد كذلك أن نتساءل أي إثراء، خصوصية، يمتلكها النص الهجروي، بأي لغة كتب، ليتخذ نعته ذاك؛ لأن الترحل عن المكان في ذاته قد لا يمثل فيصلًا في هذا الجدل؛ ذلك أن «أنا» بوسعها أن تقبع في عديد الأمكنة، وأن تستوحي وتتغذى بآفاق شتى من غير أن تبرح غرفة نومها المعتادة، ولها أن تقول العالم متكاثرًا على هواها، لكن «أنا» يمكنها، بل وينبغي لكي تنتمي إلى المكان أن تقوله باللغة الفريدة،

والدراية السديدة، والإشباع الثقافي والوجداني الخاصين، وإلا فلا فائدة. وما لنا لا نذهب، في هذا الصدد، إلى الزعم بأن أدبنا المغربي الموسوم بـ «المكتوب بالفرنسية»، أو بعضه، هو، على نحوٍ ما، منتمٍ أو متحرك في فلك ما نسميه الآن إبداع هجرة، فلغته الأدبية، ونسقه الفكري، وأفقه، وجزء من مخيال شخصياته الروائية، مثلًا، ومنهجية تلقيه، إضافة إلى مناخ شيوعه، وفضاء الاعتراف به، مناطه عالم واقع هناك. ألا يجوز، والحالة هذه، إما توسيع الدائرة أو إعادة النظر في المفهوم؟

تبقى مستويات الثقافة والمعيش والمحيط حاسمة عبر طرق ومراتب تجليها في النص الهجروي لربطه بموضوعه، بتيمته بالأحرى، أولًا، وتجسيد خواصه، ثانيًا. فيقينًا أن أي كاتب، مهجريًّا، مهاجرًا، أو أصليًّا، ينجز عمله بوحي من التفاعل مع المستويات المذكورة، ولا توجد أي عزلة مطلقة أو إمكان انقطاع عن التأثيرات الخارجية، أما الحديث عن عزلة الفن والنزعة المجانية؛ فهما هراء مجتزأ من سياقه؛ لأن الكتابة هي المعنى المخصوص والشمولي المعطى عن الوجود بأدواتها، لا الأدوات حصرًا وأنوية صاحبها. بَيد أن مسألة الموضوع (دون أن نحدد المقصود منه) ليس واحدًا ولا ممكنًا بين الجهتين. إن الكاتب في وضع المقيم في ترابه، ومهما تضاعف عالمه وشسع خياله يتنقل في جغرافية ذات تضاريس معلومة ومنضدة، وغير معرض، نعني نصوصه، لهزات مستمرة للثوابت التي تنهض عليها، خارجيًّا على الأقل إنها محمية ومحصنة، مثل صاحبها، دون محنة سؤال الهوية وتبعاته بكيفية مزمنة ومرضية أحيانًا. كما أن للمقيم المبدع في مسقط الرأس بعدًا واحدًا في الحوار والصراع والتلقي لكتابته، بصرف النظر عن الجدل والتركيب الحاصلين سواء في عمله الإبداعي أو العوالم المستثمرة فيه، وكذا جماليات التلفظ والاستقبال. أما نص الهجرة فهو في توتر مستمر، أو يفطن منتجه بعد حين من الدهر، وقد أفلح في اجتياز اختبارات اللغة والشكل الفني، الصناعة الأدبية إجمالًا، ليعجب ويكسب الاعتراف على نحوٍ ما؛ أقول يفطن أن المشكل ما زال مطروحًا كله، جله. فما هو يا ترى؟

هو أناه تبقى مبعثرة، إذا ضمن لها الوحدة الفنية في قالب متماسك وروح منسجمة؛ فإنه أبعد ما يكون عن ضبطها على إيقاع زمن لا يتحكم فيه، وتسريبها في أنوات عرضة لتمزقات هوياتية وعصابية، دائمة البحث عبثًا عن مرتكزات عاطفية، ووجوهها ترتد إليها مشروخة بتجاعيد في مرايا الآخرين. أناه لا تخضع لمفاهيم كالكينونة والوجود والحرية والوضع الفردي والمساواة والعلمانية والتعدد الديني أو اللاديني والجنسي، بل

تلهبها سياط الافتقاد والحرمان، والاستجابة لديها لحظة مؤقتة للعبور نحو مزيد من الفقد؛ أنا سيزيفية في زمن صلد لا أسطوري.

هو عالمه الذي لا يستطيع أن يسميه، وما لا يُسمى ليس موجودًا أو في حكم المحتمل. يقف أمامه دائمًا مندهشًا مثل «أليس» في بلاد العجائب، كلما عبرت المرآة تكتشف الغابة والأشياء التي ينبغي أن تُسمى عندها لأول مرة. عالمه مبني على مبدأ الانشطار، مصنوع من الحدين: هنا/هناك، الآن/أمس، أنا/هم. ازدواجية في الشعور، في التفكير، في السلوك، كذا الحلم، وكل معيش أو إحساس أو وعي يستدعي ضده، بل يصطدم عنوة في عالم الضِّعف، الذي يسميه التحليل النفسي بالفصام La schizophrénie، وإن بشروط وبمضاعفات يتغلب فيها المادي على العصاب La psychose. عالم لا يصل إليه أحد رغم وهم رسوِّ القوارب عند شاطئ النجاة، سواء بالفيزا أوب «الحريق!» يضطجع الجسد منه، لنقل في (مونتروي) بينما حلمه يحوكه سُهاد امرأة ريفية في إحدى قرى نواحي «بن أحمد» أو «ترغيست».

عالم يرسم أفقيًّا في حركتين متداومتين بلا انقطاع هما: الإقبال والإدبار، الذهاب والإياب. الحضور والغياب. أو عموديًّا عبر مسلسل من الثنائيات والأضداد على الصعيد المسلكي، قابلة لتشكيل «نحو» سردي خاص بها، بوحدات و«موتيفات» متمايزة تعيد في كل مرة تشخيص عوالم نصوص الهجرة والعودة بها إلى الأصل. وفي الحالتين هناك دائمًا وسيط، وهو ما يمثل نقطة/لحظة التقاطع بين الأفقي والعمودي. إن نص المهجر وبطله، ينظر إلى الغرب من خلال «لبلاد»، وينظر إلى هذه بعين بلاد المهجر؛ فناظم الوسيط هو العنوان الثالث في إستيطيقا نص ما ينفك يتكيف لغويًّا وبلاغيًّا ورؤية بفعل الوساطة، طردًا وعكسًا؛ ولذلك تتعايش إن لم تترجرج فيه عوالم شتى، ويتمثل أحيانًا تلفيقًا لأذواق وأساليب إما ليعجب هنا ويغيض هناك، أو ليؤكد وعي الأنا الأعلى فيه على نزعة فصام حتى العظم، كحالة مرض مزمن يضرب تيمته، وبالرجوع إلى إحدى معاني المعجم لـ «هجر». عالم مريض، المقيمون فيه والمتنصبون كمعبرين عنه مرضى إلى حد أنهم يهذون، فهل يُرجى منه ولهم شفاء، وهل لهم من شفيع لدى تقديم التوبة للتكفير عن عقوق الهجرة والانقطاع عن الوطن، عن «الجنة» قادوا أنفسهم إلى التهلكة. جاء في (الحديث): «لا هجرة بعد ثلاث.» يريد به حسب (اللسان) الهجر ضد الوصل، يعني فيما يكون بين المسلمين من عتب وموجدة أو تقصير يقع في حقوق العشرة والصحبة دون ما كان من ذلك في جانب الدين؛ فإن هجرة أهل الأهواء والبدع دائمة على مر الأوقات ما لم تظهر منهم التوبة والرجوع إلى الحق.

يشهد الله بعد هذا، أني مريض بداء اسمه «المُهجِر» وهو «النجيب الحسن الجميل يتناعته الناس ويهجرون بذكره أي يتناعتونه»، من أعراضه الخروج من أرض لأرض، والسير في الهاجرة، والحلم والهذي، وقول الباطل، أيضًا، وما أظن أن لهذا المرض، نصًّا جسدًا، من شفاء، والدليل أني قبل إقلاع الطائرة أقول: J’ai le mal du pays، والآن، بعد وقت وجيز من الوصول، لتقديم فروض التوبة والهذيان: J’ai déja mal à mon pays!

هنداوي